

رسالة
النواج والزواج



دار طائر
بيروت

رسالة النواجع والزواج

لابن شهيد الأنديزي

صححها ، وحقق ما فيها ، وشرحها ، ورواها
وصلحها بدراسة تاريخية أدبية

بطر البستاني

دار صادر
بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى : بيروت 1387 هـ - 1967 م
1416 هـ - 1996 م



دار صادر للطباعة والنشر ، ص.ب. 10 بيروت - لبنان
هاتف وفاكس 922714 / 928271 / 920978 - 4 - 961 Tel & Fax

الكتاب الاول

ابن شهيد الأندلسي

حياته ، أدبه ،
رسالة التواضع والزواجر

ابن شهيد

٣٨٢ - ٤٢٦ هـ (٩٩٢ - ١٠٣٤ م)

في الدولة العامرية

هو أبو عامر أحمد بن أبي مروان عبد الملك بن مروان بن أحمد بن عبد الملك من شُهَيْد ، ثم من أشجع وهم بطن من غطفان . ويتحدّر من سلالة الوضّاح ابن رزاح الذي كان مع الضحّاك بن قيس الفِهري يوم مرج راهط . وكان جدُّ أبيه أحمد بن عبد الملك وزير الخليفة الأموي الناصر عبد الرحمن الثالث ، وأوّل من تسمّى بذِي الوزارتين في الأندلس .

وُلد أبو عامر بن شُهَيْد بقُرطُبة في خلافة هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر ، والأمر يومئذٍ للحاجب محمد بن أبي عامر الذي حجر على الخليفة القاصر ، واستبد بالأمْر دونه ، وتلقب بالمنصور كما يتلقّب الملوك . وأُثبت ابن بسام في الذخيرة رسالة لابن شهيد خاطب بها المؤتمن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن محمد ابن أبي عامر ، يذكر فيها ما للعامريين من الفضل عليه وعلى أبيه ، فنعلم منها أن المنصور استعمل والده على الجهة الشرقية تسعة أعوام بتمدّير وبلنسية ، ولم يصرفه عنها حتّى سئم العمل والتمس الإقالة ؛ فأقاله على رضاه . فشخص إلى قرطبة ،

ومعه أربع مائة ألف دينار ناضئة ، ومائة ألف من ذهب آنية ، ووثائق خمس مائة زوج مكتسبة ، ومائتا نسمة من رقيق الصقلب منتقاة . فكتب إليه يعرض عليه ما جاءه به ، ويحكمه فيه . فجأوبه يقول : « لو أردنا أخذ ما أعطيناك ، ما قدمناك . ونحن نخاف أن تستصفي نفقتك ما استقتته ، وتأتي على ما اجتلبته ، بارتفاع ثمن الطعام ، وانك لم ترد منه على ذخيرة . وقد صككنا لك بألفي مُدِّي بشرطين من قمح وشعير تستظهر بهما على زمانك ، فاقبضها من أهراء فلانة^١ لقربها من مكانك ، إن شاء الله . »

فهذا الرضى من المنصور كافٍ لأن يطلعنا على منزلة أبي مروان عنده ، وما له من الخطوة والكرامة في دولته ، وعلى النعمة التي كان يتقلب كاتبنا في أحضانها منذ طفولته . وتبين في مكان آخر من الرسالة عناية الحاجب به ، وعطفه عليه ، إذ كان في الخامسة من سنه . فقد جيء به إليه في يوم مطير ، وبين يديه تفاحة كبيرة ، وراه ينظر إليها نظر من يشتهيها ، فأمره بأن يأخذها ويعض فيها ، فضاق فمه عن الإحاطة بجزء من أجزاء كرتها ، وصغرت كفته عن القبض إلا بمخنق من مخائق أنحائها ، فتناولها المنصور منه ، وجعل يقطع له بفمه ويطعمه . ثم دعا ولده عبد الرحمن الناصر ، فقال له : « احمله إلى أملك . » فأخذ بيده ، ومعه رجل يكنى أبا شاكر ، فامتنع الطفل عن السير من المطر ، فصاح بهما المنصور : « احملاه على أعناقكما . » فلفا أعضادهما ، ووصلا أذرعهما بأعناقهما وأقلاهما إلى زوج الحاجب ، فأجلسته على سريرها ولاطفته ، ثم أمرت له بأربعة آلاف درهم : ألف عنها ، وثلاثة آلاف عن بعليها . ويخبرنا ابن شهيد أنه كان يأمل أن يوزعها على الخدمة والعمال من الصبيان وصبايا الجيران ، فصادره عليها

١ فلانة : كنى بها عن اسم قرية أو بلدة .

أبوه ، ففرّق منها على حاشيته ، وأشار بحمل الباقي إلى خزانته . فلمّا بلغ المنصور ذلك ، بعث إليه بخمسة مائة دينار ، وأقسم على أبيه بحياته ألاّ يمنعه منها ، فتصرّف فيها على هواه .

ويذكر لابنه عبد الملك المظفر بدءاً عليه وهو ابن ثماني سنوات ، والمظفر يومئذ وليّ للعهد ، لأن المنصور توفي سنة ٣٩٢ هـ (١٠٠٢ م) وأبو عامر بن شهيد في نحو العاشرة من عمره . وذلك أن والده أبا مروان زهد في الدنيا وتنسك ، ونظر إلى الآخرة بعد إبلاله من مرض ألمّ به ، فأشاح بوجهه عن الجاه والشهوات وهما ملء راحته . وبدأ له أن يصدّ ولده عن مشاريع الحياة العذبة ، فحلق له لحيته ، ونزع عنه ثيابه الحريرية ، وألبسه مدارع الكتان ، وحمله على التقشف وشغلف العيش . فضاق الصبي ذرعاً بخطة أكره عليها ، «وكانت أفدح نازلة نزلت بصبوته ، وأقلق حادثة سلبت رونق بهجته » على حد تعبيره . فذات يوم زارهم الوزير ابن مسلمة يعود والده ، فسأله عن حاله ، فكان جوابه نشيجاً وعويلاً ؛ فلمّا رجع أخبر المظفر خبره ، فاستقدمه إليه ، وأمر به فألبس ثياب الحرير ، وضمّخ بالطيب ، وحمله على فرس كريم ، وأتبع ذلك ألف دينار في طبق ، وعقد له على الشرطة ، لكي لا يجعل لأبيه سبيلاً عليه ، فكانت لسنه أرفع خطة ، كما يقول .

ولبت أبو عامر متصلاً بالمظفر بعد وفاة أبيه المنصور وانتقال الأمر إليه (٣٩٢ هـ) . ولكن ليس لدينا من أخباره في عهد هذا الأمير ما يستحق الذكر ، وكانت ولايته سبع سنوات ، وتوفي سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ م) . ومع أن ابن شهيد بلغ رتبة الوزارة في الدولة العامرية ، إلاّ أنّه لم يصل إلى منزلة الكتابة في الديوان ليقلب بالوزير الكاتب ، على شدة تشوفه إلى بلوغ هذا الشرف أسوة بغيره من الوزراء الأدباء . ويخبرنا أن ثقل سمعه قعد به عن الكتابة للأمير ، كما

قعد بالناظر عنها إفراط جحوظ عينيه ، وبأبي القاسم ابن الإفيلي ورم أنفه^١ ،
ويقول في ذلك : « إذ لا بدّ للملك من كاتب مقبول الصورة تقع عليها عينه ،
وأذن ذكّية تسمع منه حسّه ، وأنف نقّي لا تذم أنفاسه عند مقاربتة له . »

وصار الملك بعد المظفر إلى أخيه عبد الرحمن الناصر ، فجرى كأخيه وأبيه ،
في الحجر على الخليفة هشام بن الحكم ، والاستقلال بالأمر دونه . ثم طمعت نفسه
في الخلافة ، بعد شهر من ولايته ، ولم يكن لهشام أولاد ، فطلب منه أن يوليّه عهده
ففعل . فسخط الأمويّون على الخليفة الضعيف لإخراجه الإمامة من أيديهم ،
فخلعوه وسجنوه ، وبايعوا محمد بن هشام المهدي ، من حفدة عبد الرحمن
الثالث . وكان الناصر في طليطة ، فلما بلغه الخبر قفل إلى قرطبة ، ولكنه لم
يجرؤ على دخولها لأن جيشه تحلى عنه ، والفقهاء أخذوا يحرّضون الناس عليه .
وكان يلقب بالشنشول أو الشنجول (Sanchol) وهو تصغير سانشو أو شانجه ،
لأن أمّه أميرة إسبانية ، وأبوها شانجه إمّا أنّه ملك قشتالة أو ملك النافار ، كما
يقول دوزي^٢ ، فكلاهما كان يخطب ود الحاجب المنصور ، ويرغب في
الازدلاف إليه . فلم يسع الفقهاء أن يسلموا مقاليد الخلافة إلى الشنجول ، وهم
يرون فيه شانجه الصغير وابن ملك الإسبان ، فما زالوا يهتفون به حتى أثاروا
الحفاظ على عليه ، فكرهت نفسه البقاء ، وأحبّ الانتحار فلم يُتّح له ، لأن المهدي
أدركه بوزيره فقبض عليه ، واحتزّ رأسه ، فزالت بموته الدولة العامرية سنة
٣٩٩ هـ (١٠٠٩ م) .

١ قال ابن بسام في الذخيرة إن محمد بن عبد الرحمن المستكفي الخليفة الأموي ، استكتب أبا القاسم
ابن الإفيلي بمد كاتبه الوزير ابن برد ، فوقع كلامه جانباً من البلاغة ، لأنه كان على طريقة
المعلمين المتكلمين . فلم يجر في أساليب الكتاب المطبوعين ، فزهده فيه .
٢ يقول بروكلمن إنه ملك النافار .

الفتنة

غير أن محمد بن هشام لم يستقر ملكه على حال لأنّه جافى البربر لميلهم إلى العامريين ، فاجتمعوا بظاهر قرطبة ، فأتمروا به ، وبايعوا سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الثالث الناصر ، وتسمى بالمستعين . فقامت الفتنة بين الأميرين ، واتسعت ميادينا ، فغزا البربر قرطبة ، فاستولوا عليها بعدما قتلوا خلقاً عظيماً منها ، ودخلها المستعين في ختام المائة الرابعة للهجرة ، وهرب المهدي إلى طليطلة يستنصر الإشبانيّين ، فأمدوه بالعساكر ، فنهض بهم إلى قرطبة ، فامتلكها وهزم المستعين والبرابرة . ثم عاد هؤلاء إلى محاربته ، فخشى القرطبيّون من اقتحام البربر عليهم ، فثار الصقالبة ، فأخرجوا هشام بن الحكم من السجن ، وجددوا له البيعة ، على أمل أن يعتصموا به من البرابرة ، وقتلوا المهدي تخلصاً من الفتنة التي أثارها عليهم . ولكن المستعين استمر على حصار قرطبة حتى افتتحها عنوة سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٣ م) فقتل هشاماً ، وتولى مكانه ، وتغلب البربر على الأحكام بعدما انتهت العاصمة وخرب أجمل قصورها ، وأصبحت مثلها المدن والقرى في جوارها .

وكان عليّ بن حمّود الإدريسي قد جاء الأندلس من المغرب ، فدعا البربر إلى مبايعته ، فأجابوه لما للأدارسة من الكرامة عندهم ، فدخل قرطبة سنة ٤٠٧ هـ (١٠١٦ م) فقتل المستعين ، وتلقب بالناصر . فثار عليه خيران الصقلابي صاحب المريّة ، والمنذر بن يحيى التّجيجيّ صاحب سرقسطة ، وبايعا عبد الرحمن الرابع ، من عقب الناصر عبد الرحمن الثالث ، فتلقب بالمرتضى . واستقام الأمر لعلي بن حمّود نحو عامين إلى أن قتله صقالبته في الحماّم سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٨ م) فقام بالأمر بعده أخوه القاسم ، وتلقب بالمأمون ؛ فجمع خيران والمنذر الناس ،

وفيهـم رجال الدين ، فصدّقوا بيعة المرتضى ، ونصبوه خليفة بشرقي الأندلس .
ثم ساروا به إلى غرناطة ، وعليها زاوي بن زيري من حزب قاسم بن حمّود ،
فرفض المبايعة ، وقتلهم . فاتفق المنذر وخيران على خذل المرتضى لأنه أبى
أن ينزل على مطالبهما ، ففاوضا ابن زيري في ذلك ، ثم انهزما برجالهما ، فقاتل
المرتضى حتى صُرع كثير من أصحابه حوله ، وانكشف عنه الباقون ، فخاف
أن يُقبض عليه ، فولّى إلى وادي آش ، فلحق به رجال خيران فذبحوه سنة
٤٠٩ هـ (١٠١٨ م) .

واستوى القاسم بن حمّود على العرش مدّة أربع سنوات ، حتى جاء من
طنجة يحيى ابن أخيه عليّ بنازعه الملك ، فاستولى على قرطبة سنة ٤١٢ هـ
(١٠٢١ م) وتلقّب بالمعتلي ، وفرّ المأمون إلى إشبيلية فاستجاش بعض البرابرة ،
ثم رجع إلى قرطبة سنة ٤١٣ هـ وملكها ، وهرب المعتلي إلى مالقة ، وتغلّب
على الجزيرة الخضراء ، واستولى أخوه إدريس على طنجة وهي حصن للمأمون
وراء البحر .

ثم ثار أهل قرطبة على المأمون وأصحابه البربر المستبدّين بالأحكام سنة ٤١٤ هـ
(١٠٢٣ م) فخرج الخليفة إلى إشبيلية ومنها إلى شريش . وبايع القرطبيون عبد
الرحمن الخامس أخا المهدي ، وتلقّب بالمستظهر ، ولكنه لم يملك سوى سبعة
وأربعين يوماً حتى قتله جماعة من الشعب ، فخلفه محمد الثالث المستكفي بن
عبد الرحمن بن عبيد الله ابن الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر .

ولم يلبث البرابرة أن تخلّوا عن المأمون بن حمّود ، وبايعوا ابن أخيه المعتلي
سنة ٤١٥ هـ ، فزحف إلى عمّه واعتقله ، وجاء به إلى مالقة .

ثم خلع أهل قرطبة المستكفي سنة ٤١٦ هـ بعد ستة عشر شهراً من ولايته .
وجدّوا بيعة المعتلي فاستعمل عليهم ابن عطف ، وهرب المستكفي إلى الثغر
ومات هناك .

وانتقض القرطبيون سنة ٤١٧ هـ (١٠٢٦ م) على المعتلي وصرفوا عامله عنهم ، وباع الوزير أبو الحزم جهّور عميد جماعتهم لهشام بن محمد أخي المرتضى ، وكان بلاردة في الثغر عند ابن هود . فلمّا انتهى إليه خبر البيعة انتقل إلى البرّت سنة ٤١٨ هـ ، وتلقب بالمعتد بالله ، وأقام متردداً في الثغر نحو ثلاث سنوات . حتّى اشتدت الفتن بقرطبة بين رؤساء الطوائف ، فانفقوا على استدعائه ، فجاء العاصمة آخر سنة ٤٢٠ هـ ، فأقام بها حتّى خلعه الجند سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣٠ م) ففرّ إلى لاردة ، ومات بها سنة ٤٢٨ هـ فانقطعت به الدولة الأموية .

واستبد بالحكم بعده في قرطبة العميد ابن جهور ، غير أن المعتلي بقي يردّد العساكر لحصارهم إلى أن أسلمت له الحصون والمدائن ، فعاد الأمر إليه حتّى قُتل سنة ٤٢٦ هـ (١٠٣٤ م) وهو يحارب القاضي محمد بن عبّاد النائر بإشبيلية ، فذهبت بموته سلطة الدولة الحمّودية العلوية عن قرطبة ، وقامت حكومة الجماعة الأرسنقراطية ، وعلى رأسها أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور من ملوك الطوائف .

ابن شهيد والمؤمن

فهذه الفتنة العمياء التي تقاذفت الأندلس طوال خمس وعشرين سنة ، حتّى أفضت إلى تقطيع أوصالها ، لم يبلغ إلينا خلاها من أخبار أبي عامر بن شهيد سوى نُبْد متفرقة لا يتألف منها بحث متساوق في حياته ، فرأينا أن نسدّ ثلماتها بما نستطيع استخلاصه من شعره ونثره مستضيئين بمعالم التقلبات السياسيّة التي مرت به بعد وفاة الناصر بن أبي عامر سنة ٣٩٩ هـ ؛ فإن رسائله إلى عبد العزيز المؤمن

ابن الناصر تدلنا على أنه لبث في قرطبة لا يبرحها ، مع ما نال أولياء نعمته من غيرَ الدهر ، فانزعجوا عن دار ملكهم ، وتفرقوا في البلاد الأندلسية ، فذهب المؤمن إلى الجهة الشرقية من بلنسية وتدمير ، واستقر بها ، فلم يغفل أبو عامر عن مكاتبته ، والإشادة بأفضال العامرين عليه وعلى أبيه . ويرجو منه أن يصرف له ضيعة كان وزير والده قد وعده بها ، فحالت الفتن دون إنجاز وعده . ويضم إلى الرسالة قصيدة طويلة في مدحه ، يذكر بها الفتنة ومقتل الناصر وانتشار الفوضى بعده ، ويحرضه على استرجاع الأمر ، وكشف الغمائم ، مستبشراً بأنه انتضى عزيمة ماضية لاحت بوارق سعدا في انتصاره على السودان إذ ضربهم بالصقالة البيض :

| | |
|----------------------|-----------------------------|
| من فتنةٍ قد أُسِيتْ | ظلماتها بيد المظالم |
| عمَّت لها أحلامنا | وكأنها أضغاث حاليم |
| وتضاءلت | أجرامنا فيها بمؤبقة الجرائم |
| وتحوّلت فيها الدُّنا | بي الرأس ، وابن المجد راغم |
| وأدار كلُّ صغيرٍ قد | ر المستهى أرحي العظام |
| فكأنا عُنِي نسا | قُ على العمى ، في ظلّ عام |
| حتى انتضى عبد العزيز | عزيمة من صدر عازم |
| ضرب الأعاجم سودها | بالصيد من بيض الأعاجم |

١ الأرحي : جمع الرمي .

٢ بالصيد : في الأصل بالسد .

فاستجفلوا فكأتما ضرب الثعالب بالضراغم
 رعياً لمؤمن رعى فينا الحدايث والقدايم
 بدأت أوائله وعاد لكشف غاشية الغياهم^١
 لا تتركن صرم الزمان على ظبي تلك الصوارم
 وارم الخطوب بمثلها عزمًا ، فأنت لها مساهم

وتلقى جواباً من المؤمن يدعو فيه إلى الالتحاق به ، فردّ عليه معذراً لأنّه
 لا يستطيع هجر قرطبة لتعلق قلبه بها :

« وقد كان أقلّ حقوق مولاي أن أفق بيابه ، وأخيّم بفينائه ، وأهدي
 إليه الشكر غَضّاً ، وأنثر عليه المدح نصّاً^٢ . ولكني ممنوع ، وعن إرادتي
 مقموع ؛ يملكني سلطان قدير ، وأمير ليس كئله أمير : شيء غلب صبر
 الأتقياء واستولى على عزم الأنبياء ، وهو العشق : باطل يلعب بالحق ليبين
 ضعف البشر ، وتلوح قدرة مُصرف القدر . والذي أشكو منه أغرب الغرائب ،
 وأعجب المعائب : بثّ شاغل ، وبرّح قاتل ، وصبر بغيض ، ودمع يفيض ،
 لعجوز بخراء ، سهكة درداء^٣ ، تدعى قرطبة :

عجوز ، لعمرُ الصبا ، فانية ، لها في الحشا صورة الغانية
 زنت بالرجال على سنّها ، فيا حبذا هي من زانية ! »

١ النياهم : الظلمات .

٢ نصّاً : خالصاً .

٣ سهكة : أي ذات رائحة كريهة . درداء : ذهبت أسنانها .

وله قصيدة أثبتتها الفتح بن خاقان في كتابه « مطمح الأنفس » يشكو بها ما لحقه
من الضيم والمهانة عند الخليفة العلوي ، منها قوله :

قريبٌ بمحتلِّ الهوانِ بعيدٌ يجود ويشكو حُرَّتَه فيُجيدُ
نعى ضَرَّه عند الإمام ، فإله عدوًّا ، لأبناء الكرام حسوداً

ثم لم يلبث أن استقامت أموره في زمن المعتلي يحيى بن عليّ (٤١٢ هـ) يدل
على ذلك كثرة مدائحه له . ولم يطل حكم المعتلي في قرطبة ، فإن عمه القاسم
المأمون استعادها منه سنة ٤١٣ هـ ، كما مرَّ بنا ، وأكرهه على الفرار بسريره إلى
مالقة ، فكان ابن شهيد يكتب إليه بقصائد المدح والتهنئة ، منها قصيدة يهنئه فيها
بانتصاره على السودان في وقعة إشبيلية :

أجريت للزَّنج فوق النهر نهرَ دمٍ حتى استحال سماءُ جُلَّتْ شفقا

ولما ثار أهل قرطبة على المأمون وقتلوه ، وبايعوا الأمير الأموي عبد الرحمن
المستظهر ، وجد فيه أبو عامر فتى كريماً في الثالثة والعشرين من عمره يألفه ويأنس
بأدبه ، ويرفع قدره كما رفع أقدار غيره من الوزراء بقايا بني مروان ، غير أنه
لم يملك سوى سبعة وأربعين يوماً حتى قُتل ، وبويع بعده للمستكفي ، وليس لدينا
ما يدل على اتصال الشاعر بالخليفة الجديد ، وإنما نعلم أنه لم ينقطع عن مكانة
المعتلي ، وربما كان ي كاتب المؤتمن أيضاً ؛ وله قصيدة يتظلم فيها من بني أمية ،
ويرجو الخير عند الهاشمين بني حمّود ، وقد أزمع على الخروج من قرطبة لاحقاً
بيحيى بن عليّ في مالقة ، يقول فيها :

١ حسود : فاعل نعى .

لئن أخرجتني عنكمُ شرُّ عَصْبَةٍ ففي الأرضِ إخوانٌ عليّ أكارمُ
وإن هَشَمْتُ حَقِي أُمِيَّةٌ عندها فهاتَا عليّ ظَهْرُ المحبَّةِ هاشمُ^١

مرضته الأخيرة

ولا نحسب أنه هجر قرطبة طويلاً ، لأنه لم يكن يطيق الابتعاد عن ملامهيا ولذاتها ، فجميع أخباره وأشعاره صادرة عنها ، وإن لم يبلغ إلينا منها ما يطلعنا على علاقته بالمعتد آخر الخلفاء الأمويين ، ولا ما كان من أمره بعد عودة الحكم إلى المعتلي ؛ وإنما نعلم أنه اعتلّ في آخر عمره ، فلزمه الداء بضِع سنين حتى غلب عليه الفالج في مستهل ذي القعدة من سنة ٤٢٥ هـ وذلك نتيجة انغماسه في حياة الراحة والترف ، وإطلاقه العنان لشهوات النفس ، وإدمانه مجالس الشراب ، وإجهاده الفكر والأعصاب في النظم والتأليف . ولكنه لم ينقطع عن الحركة أصلاً ، فكان يمشي إلى حاجته معتمداً على عصا أو على إنسان ، إلى قبل وفاته بعشرين يوماً ، فإنه صار يُنقل في المحفة ، ولا يحتمل أن يُحرَّك لعظيم الأوجاع ، مع شدة ضغط الأنفاس ، وعدم الصبر حتى همَّ بقتل نفسه ، وفي ذلك يقول :

أنوح على نفسي وأندب ثُبُلَهَا إذا أنا في الضَّرَاءِ أزمعتُ قَتْلَهَا
رضيتُ قضاء الله في كلِّ حالة عليّ وأحكاماً تيقنتُ عَدْلَهَا
أظلُّ قَعِيدَ الدارِ تَجَنُّبِي العِصَا على ضعف ساقٍ أو هن السقمُ رَجْلَهَا

١ هات : بمعنى هذه . تا اسم إشارة إلى المؤنث ، وها لتثنيه .

ومع ذلك لم يعطل لسانه ، ولا انقطع عن قول الشعر ، فكان يرأسل به أصدقاءه من الوزراء والأدباء . وقد أوصى أن يُدفن بجانب صديقه أبي الوليد الزجالي ، وأن يُكتب على قبره في لوح رخام هذا النثر والنظم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، قل هو نبيّ عظيم أنتم عنه معرضون . هذا قبر أحمد ابن عبد الملك بن شهيد المذنب ، مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، وأن البعث حق . وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، مات في شهر كذا من عام كذا :

| | |
|-----------------------------|-------------------------------|
| يا صاحبي ، قُمْ ، فقد أطقنا | أنحنُ ، طولَ المدى ، هُجودُ ؟ |
| فقال لي : لن نقوم منها | ما دام من فوقنا الصعيدُ |
| تذكرُ كم ليلةٍ هونا | في ظِلِّها ، والزمان عيد ؟ |
| وكم سرورٍ همي علينا | سحابةٌ ثرّةٌ تجود ؟ |
| كلُّ ، كأن لم يكن ، تقضى | وشؤمه حاضرٌ عتيد |
| حصله كاتبٌ حفيظٌ ، | وضمه صادقٌ شهيد |
| يا ويلنا إن تنكبتنا | رحمةٌ من بطشه شديد |
| يا ربّ عفواً ، فأنت مولى | قصر في أمرك العبيدُ » |

وما زال كذلك حتى توفاه الله يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى من سنة ست وعشرين وأربع مائة وهي السنة التي قُتل بها المعتلي ، وكان في الرابعة والأربعين من عمره . قال ابن بسام : « ولم يُشهد على قبر أحد ما شهد على قبره ، من البكاء والعويل ، وأنشد على قبره من المراثي جملة موفورة لطوائف كثيرة . »

لهو ومجون

لم تشغل السياسة ابن شهيد ، على قلبها في عصره وتقربه إلى ذوي السلطان ، بقدر ما شغلته ملذات قرطبة وملاهيها ؛ فقد كان من أولئك الشبان الذين يتهافتون على ارتشاف عُسيلات الحياة لا يتورعون من مواجهة محرّماتها ، حفاظاً لدين ، أو صيانة لكرامة . وتأتى له من شرف المقام ، وبسطة العيش ، ما جعله يطلق يديه في البذل والعطاء لاجتناء الطيبات ، واصطفاء الأحباب والحلان ، حتى شارف الإملاق ، وأتاح لأعدائه وحسّاده أن يصلّتوا عليه ألسنة حداداً لدى الملوك والأمراء ؛ فالتقاء ابن حمّود في غيابة السجن ، وكان مجونه من أسباب سخطه عليه ؛ وأراد أن يعتذر فلم يستطع إنكار ما نُسب إليه :

وما ضرّه إلا مُزاحٌ وريقةٌ ثنّتهُ سفيه الذّكر وهو رشيدُ
فإن طال ذكرى بالمجون فلنني شقيّ بمظلوم الكلام ، سعيد
وهل كنت في العشاق أولّ عاقل هوت بحجّاه أعينٌ وخدود ؟
وإن طال ذكرى بالمجون فلنّها عظام لم يتصبرَ لمنّ جليدُ !

وعلمنا أنّه بلغ رتبة الوزارة ، ولم يبلغ منزلة الكتابة في الديوان ؛ وزعم أن نقل سمعه أخره عنها ، وما كان ينبغي له أن ينسى فتكه وعبه ، فإن الملوك يؤثرون في الكاتب العقل والرصانة على الهزل والمجون ؛ مع أنّه في كلامه على الجاحظ أضاف إليه خفة العقل ، وقال إنها قعدت به عن الكتابة ، كما قعد به عنها جمحوظ عينيه :

« وربما أنكر منكر قولنا في شرط جمع أدوات الكتابة فقال : وأي أداة نقصت الجاحظ ؟ فنقول : أول أدوات الكاتب العقل ، ولا يكون كاتب غير عاقل . وقد نجد عالماً غير عاقل ، وجدلياً غير حصيف ، وفقهاً غير حليم . وقد وجدنا من ينسب العقل إلى سهل^١ أكثر من نسبته إلى الجاحظ . »

ورأيناه يأبى الخروج من قرطبة للقاء مولاه المؤمن في مالقة ، مع حبه له ، لأنه لم يطق فراق تلك العجوز الزانية ، التي تقود إليه ضروب الملذات . قال ابن بسام في صفة أخلاقه :

« منهم أبو عامر بن شهيد فتى الطوائف ، كان بقرطبة ، في رفته وبراعته وظرفه ، خليعها المنهمك في بطالته ، وأعجب الناس تفاوتاً ما بين قوله وفعله ، وأحطهم في هوى نفسه ، وأهتكم لعرضه ، وأجراًهم على خالفه . » وقال فيه ابن حيّان :

« غلبت عليه البطالة ، فلم يحفل في آثارها^٢ بضياح دين ولا مروءة ، فحطّ في هواه شديداً ، حتى أسقط شرفه ، ووهّم نفسه راضياً في ذلك بما يلذه ، فلم يقصّر عن مصيبة ، ولا ارتكاب قبيحة . »

وكانت النساء المحصنات تتجنب لقاءه ، وتبتعد عنه ، إذا رآته ، خشاة أن يتعرض لهن بشعره فيفضحن به . وكان له بباب الصومعة من الجامع موضع لا يفارقه أكثر نهاره ، فقعد فيه ليلة سبع وعشرين من رمضان ، في جماعة من إخوانه ، فإذا امرأة من أعيان أهل قرطبة ، أطلت تتوارى بين جواربها ، وأمامها

١ سهل : أي سهل بن هارون .

٢ في آثارها : لعلها في إشارتها .

طفلها يرافقها إلى المسجد . فلما وقعت عينها على أبي عامر ، ارتدّت مولية عنه ، وكرهت أن تمر به ، ولكنها لم تسلم من معرفة لسانه ، فقد رآها مقبلة مدبرة ، فراقه منظرها على الحالين ، فقال فيها شعراً فضحها به وشهرها ، على غير ذنب منها .

وذكر الفتح بن خاقان علته في آخر حياته ، فرجا أن يكون له فيها كفارة عن ذنوبه ، قال :

« وأحسب أن الله أراد بها تمحيصه ، وإطلاقه من ذنب كان قنبصه ، فطهره تطهيراً ، وجعل ذلك على العفو له ظهيراً ! »

ولم يكن ابن شهيد في مرضه الأخير قد بلغ السن التي تضعف بها شهوات النفس ، ونزوات أهوائها ، ولا سيما من كان مثله جلّس لهو ، وتبع نساء ، فظل ، على تحكّم الفالج بجثمانه ، وشعوره العميق بآثامه ، يحن إلى الماضي البهيج ، ويشتاق العيون السواحر ، فيقول ، حين همّ بقتل نفسه تخلصاً من الأوجاع :

عليكم سلام من فتى عضّه الردى ولم ينسَ عيناً أثبتت فيه نبلها

ويقول أيضاً في علته :

وليس عجباً أن تدانت مني ، يصدق فيها أولي أمرٍ آخري

ولكن عجباً أن بين جوانحي هوّى كشرار الحمرة المتطاير

يجرّكني والموت يحفز مهجتي ، ويهتاجني ، والنفس عند حناجري

ولم يزل قلبه يحقق للحب واللهم ، وتعتاده صبوة الشباب ، حتى مات .

أصحابه وأهل مودته

هؤلاء الأصحاب منهم الأمراء ، ومنهم الوزراء ، ومنهم الأدباء ، جمعتهم قصور قرطبة ودواوينها ، ومجالس سياستها وأنسها ، وأيام نعيمها وبؤسها ؛ فكان أبو عامر نقطة الدائرة الأدبية في عصره ، يرفع الأمراء قدره ، ويخطب الوزراء صداقته ، ويتبارى الشعراء والكتّاب بمساجلته ، واستحثاث قريحته . فأخلص الود لمن وجد فيه المودة والإخلاص ، فلم ينسَ العامريين في نكبتهم ، ولا كفر فضلهم بعد زوال نعمتهم ، وإفراط الأمويين عليهم ، بل لبث يشيد بذكرهم في شعره ورسائله ، ويتمنى رجوع دولتهم ، ويحض المؤتمن على الثورة ، وطلب الملك المفقود . وكذلك كان شأنه مع المعتلي يحيى بن عليّ بعد استيلاء عمّه المأمون على قرطبة . وأحب من الأمويين المستظهر بالله ، وكان أديباً شاعراً يعتزُّ به الأدباء ويأنسون بمجلسه ، فحظي عنده مدة خلافته القصيرة . وأخباره مع الحاجب أبي عامر بن المظفر مأثورة ، كما يقول ابن حيّان ، فإن هذا الأمير لم يهجر قرطبة بعد انقضاء الدولة العامرية ، فمضت له بها عيشة راضية ، يجتمع أهل الأدب في قصره ، ويشاركونه في لهوه ، ويخلّدون بأقوالهم آثاره ، ولا سيّما أبو عامر ابن شهيد فإنه كان ألهمهم بذكره ، وأكثرهم اختلافاً إليه . فمن جملة أخباره معه ما رواه ابن حيّان من أنّه شاهدهم ليلة في مجلسه ، وطُفيلة صغيرة عجيبة الخلق كانت تسقيهم ، تسمى أسماء ، عجبوا من مكابلتها السهر معهم على صغر سنّها ، وحسن قيامها بخدمتهم ، فسأل ابن المظفر أبا عامر بن شهيد أن يصفها ، فقال :

أفدي أسيّماء من نديمٍ ملازمٍ للكؤوس ، راتبٍ

قد عجبوا في السَّهاد منها ، وهي ، لَعَمري ، من العجائب
قالوا : تجافى الرقاد عنها ، فقلتُ : لا ترقد الكواكب

ولم يزل على اتصال به ، حتى استوحش ابن المظفر من هشام المعتد بالله .
وخشي أن يطلبه بذنب تُسب إليه ، فخرج من قرطبة هارباً ، ثم التجأ إلى حصن
على نهرها ، فأجاره صاحبه حرزة اليَصْدرانيّ ، فأقام عنده في كمد وغصة إلى
أن مات .

وأصحابه الوزراء كثيرٌ ، وفيهم طائفة من الأدباء يمدحونه ويمدحهم ،
ويساجلونه ويساجلهم ، أمثال الوزير الكاتب أبي المغيرة عبد الوهّاب بن حزم ،
« وكان هو وأبو عامر بن شهيد خليلي صفاء ، وحليفي وفاء ، لا ينفصلان في
رواح ومقيل . » على حدّ تعبير الفتح بن خاقان ، ولم تكن صلته به دون صلته
بأبن عمّه الوزير الأديب ، والعالم الفقيه أبي محمد بن حزم صاحب كتاب الفِصل
في الملل والأهواء والنّحل ، وكتاب طوق الحمامة في فلسفة الحب وصفاته . وكانا
يتقارضان الشعر ، ويتهاديان المدح ، فمن قول أبي عامر فيه :

وأنت ابن حزمٍ مُنعشٌ من عِثارها إذا ما شَرِقْنَا بالحدود العواري
وكتب إليه في علته يقول :

فَمَنْ مُبْلَغٌ عني ابن حزم ، وكان لي يداً في مُلَمّاتي وعند مَضايقي :
عليك سلام الله ، إني مفارقٌ ، وحسبك زاداً من حبيبٍ مفارقٍ ١
فلا تنسَ تأبيني ، إذا ما فقدتني ، وتذكّارَ أيامي ، وفضل خلائقي

١ وحسبك زاداً : أي وحسبك السلام زاداً .

فأجابه ابن حزم بأبيات منها قوله :

أبا عامر ، ناديت خيلاً مُصافياً ، يُفدّيك من دُهم الخطوب الطوارقِ
وألقيت قلباً مُخلصاً لك ، مُمحّضاً بودّك ، موصولَ العرى والعلائقِ
فان تنج ، قلتُ : الحمد لله مُخلصاً ، فمن أعظم النعمى بقاء المُصادقِ

وكان صديقه الوزير أبو مروان بن الجزيري يساجله في القريض معترفاً بفضله مع أنّه كان يومئذ في نحو الثانية عشرة من عمره ، لأن المظفر عقد له على الشرطة وهو دون العاشرة ، وكان أبو مروان من وزراء الدولة . ثم غضب المظفر على الجزيري ، فسجنه في المطبق ومات فيه غنوقاً سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ م) وابن شهيد في الثانية عشرة . فمساجلة أبي مروان له في الشعر ، وهو صبي ، تدل على نبوغه المبكر . فقد كتب إليه مرةً يسأله عن الورد :

قل للوزير الذي بانَتْ فضائلُهُ ، وقام فينا مقام الغيث نائلُهُ :
أواخرُ الورد ، إذ تجنيه مُلتقطاً ، أزكى وأعطرُ نَشْراً ، أم أوائلُهُ ؟
فأجابه :

يا سيداً ، أريجت طيباً سائلُهُ ، وشاكت شِعْره حُسناً رسائلُهُ
وسائلاً ليّ حمّاً ليس يجهلُهُ ، ولا الذي كلّف التفصيلَ جاهلُهُ
الوردُ عهداً ونشراً صنوّ عهدك ، لا تُنسي أواخرَهُ طيباً أوائلُهُ
ووصلهُ ، في كلا الحالين ، مُفترَضٌ ، سيّانٍ قاطِعُهُ جهلاً ، وواصلُهُ

ورثي من أصدقائه الوزراء أبا عبيدة حسان بن مالك ، وزير الخليفة المستظهر أيام الفتنة ، فقال فيه :

أفي كل عام مصرعٌ لعظيم ؟ أصاب المنيّا حادثي وقديمي !

ورثي من القضاة صقيّة أبا حاتم بن ذكوان صاحب المظالم في زمن المظفر ،
وكان قسيم نفسه ، ونسيم أنسه ، كما يقول الفتح في مطمح الأنفس ، فقال :

يسيرُ به السَّعْسُ الأغرُّ وحولهُ أباعيدُ راحوا للمصاب أقاربا
عليه حقيفٌ للملائك أقبلت تُصافح شيخاً ذا كَر الله تائباً

وقضى أيامه الأخيرة ، بعدما استبد عليه الفالج ، وبات الموت يلاحظه ،
في نظم الأشعار وإرسالها إلى أصحابه ، قال ابن بسّام : وبلغني أن آخر شعر قاله
يودّع إخوانه هذه الأبيات :

أستودع الله إخواني وعيشتهم وكلّ خيرٍ لي إلى العلياء سباق^١
وفتية^٢ كنجوم القذف نيرهم يهدي ، وصائبهم يؤدي بإحراق^٢
وكوكبا لي منهم كان مغربهُ قلبي ، ومشرقهُ ما بين أطواق
اللهُ يعلمُ أني ما أفارقه ، إلّا وفي الصدر مني حرٌّ مشتاق
كنّا أليفين خان الدهرُ ألفتنا ، وأيُّ حرٍّ على صرفِ الردى باق ؟
فإن أعيش ، فلعلّ الدهرَ يجمعنا ، وإن أمّنت ، فسيسقيه كذا الساق
لا ضيّع الله إلّا من يضيّعهُ ، ومن تخلّق فيه غيرَ أخلاقي !
قد كان برّدي ، إذا ما مستني كلفٌ ، لا يثلمُ الحبُّ آدابي وأعراق

١ الخرق : الفتى السخي لطريف ، والكريم الخليفة .

٢ نجوم القذف : أي الشهب التي قذفت بها شياطين الجن ، فأحرقهم ، كما جاء في القرآن .

حتى رمّتنا صروفُ الدهرِ عن كُتبٍ ففرّقنا ، وهلّ من صَرفِه واقٍ ؟
إني لأرْمُقُه ، والموت يَضْغَطُنِي ، فأَقْضِي فُرْجَةً مُرْتَدَّةً أُرْمَاقِي
وكانت وصيته قبل وفاته أن يُدفنَ بجانب صديقه أبي الوليد الزجّالي .

خصومه وحساده

بلغ ابن شهيد ، في زمانه ، منزلة أدبية بشعره ونثره رفعت قدره ، في قصور
الأمراء ، على أقدار أقرانه ، فأوت إليه جماعة المعجبين به تَلَفُ لِفَه وتُشيد
بذكّره ، فناله ما ينال الأدباء من الزهو والاعتداد بالنفس ، فتتكرّر له جماعة
من أبناء طبقته وأهل حرفته ، وحسدوه على نعمة من خفيض العيش يتقلب فيها ،
وهيبة من توقّد الذهن يشتمل عليها : نعمة الأرض ، وهبة السماء . فراحوا
يسعون به لدى الملوك ، ويتنقصون شعره وأدبه وأخلاقه ، حتى حبسه ابن حمّود ،
وأعرض عنه المستعين . وقد مرّ بنا كيف اعتذر من مجونه ، وذاد عن شعره ،
وأزرى على حاسديه . ويذكر في رسالة التواضع والزواجر ثلاثة أشخاص لا يملّون
من الطعن عليه ، وهم أبو محمد وأبو القاسم وأبو بكر . فأبو محمد انتضى عليه
لسانه عند المستعين ، واتهم شعره وشكّ فيه . ولا نعلم من الأدباء من يكنى بهذا
الاسم ، وله صلة به ، غير أبي محمد بن حزم ، وكان صديقه كما ذكرنا ، وليس
في أخبارهما ما يدل على تخصّصهما في بعض الأوقات ، وإنما كان بينهما مكاتبات
ومداعبات ، على ما أنبأنا ابن خلكان . ومن معاصريه القاضي أبو محمد عبد الله
المعروف بابن القَرَضي ويكنى أيضاً أبا الوليد؛ تولّى القضاء في دولة المهدي . وقتله
البربر يوم استيلاء المستعين على قرطبة ، سنة أربعمائة للهجرة ، بحسب رواية

الذخيرة ، غير أن نفح الطيب يجعل مقتله في سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٣ م) فيكون قد أدرك خلافة المستعين الأولى وهو رجل ذو حظ من الشعر والأدب ، ولكن لم تُعرف له علاقة صداقة أو خصومة بأبي عامر بن شهيد ، فبالأولى أن يكون المقصود أبا محمد بن حزم لسلطة لسانه ، وقد يحدث أمثال هذه الهنات بين الأدباء ، وإن كانوا أصدقاء .

وليس في التعريف بأبي القاسم مجال للاجتهاد والتخمين ، كما هي الحال في أبي محمد ، فقد صرح ابن شهيد باسمه في رسالته إذ قال : « وأما أبو القاسم الإفليبي ، فمكانه من نفسي مكين ، ووجه بفؤادي دخیل ، على أنه حامل عليّ ، ومتسبب إليّ . » وأبو القاسم هذا من أئمة النحو واللغة بالأندلس ، كثير الحسد والغرور ، يجادل على الخطأ ويتشبّث به معانداً . وخصّه أبو عامر بمكان من رسالته في عالم الجن ، لينتقده ويتنقم منه ، فأقام له تابعا سمّاه أنفَ الناقة ، وأخذ يناظره ويُسَمِّعه من كلامه حتى أخزاه ، فقال : « وعلت أنفَ الناقة كآبة » ، وظهرت عليه مهابة ، واختلط كلامه ، وبدا منه ساعثنذ بَوادٍ في خطابه رحمه لها من حضر ، وأشفق عليه من أجلها من نظر . »

على أن الإفليبي ، وإن تحامل على أبي عامر ، لم يكن ينكر عليه أدبه ، وبصره بمذاهب الكلام ، فقد عرض عليه يوماً بعض المتأدبين شعراً له استعمل فيه وحشيّ اللفظ ، فقال له : « تنكّبت عن هذا الكلام . » فقال : « إن أبا عامر يستعمله . » فقال : « يضعه في موضعه ، وهو أدري منك في استعماله . »

وأما أبو بكر فشأنه شأن أبي محمد في الالتباس والغموض ، فقد يكون أبا بكر ابن حزم ، ولا نعرف عنه شيئاً سوى أن أبا عامر صدّر رسالة التوايع والزوايع بمخاطبته ، وذكر أنه حين سمع كلامه تعجب وقال : « كيف أوتي الحكم صبيّاً ، وهز يجذع النخلة فاسأقط عليه رطباً جنيّاً ؟ ! » وقد يكون أبا بكر

عُبَادَةَ بن ماء السماء ، وهو من مشاهير شعراء قرطبة ووشاحيها ، لحق الدولة العامرية والدولة الحمودية ، ويقول ابن شهيد إنه توفي بمالقة سنة ٤١٩ هـ . وقد يكون الكاتب أبا بكر المعروف بأشكمياط ، وهو من الذين نقدوا أبا عامر وعابوه باستباحة كنوز غيره . روى ابن بسام أنه عرضت عليه فصول من كلامه ، فقال : « فِقَرَّ حِسَانُ إِلَّا أَنَّهُ عَثَرَ عَلَيْهَا . » فوصل خبره إلى ابن شهيد ، فكتب إليه بما ملخصه : « مَا أَغْيَرَكَ أبا بكر ، على نظم ونثر ، لو إليك كان العلم ، أو بكفلك كان الفهم . . . عرضتُ عليك الدَّرَّ منظوماً ، فقلت : نعمَ ما صنعتَ لو اخترعتَ ، وما أحسن ما أطلعتَ لو ابتدعتَ ، مُعْرَضاً بالتقصص^١ ، ومشيراً إلى التلصص . . . لأقطعنَ حبالك هاجراً ، ولأتركنَ ليلك ساهراً ! »

وله رسالة إلى أبي القاسم الإفليلي يشكو فيها تغيره عليه ، ويعزو ذلك إلى جعفر بن محمد بن فتح ، فيقول : « فبحثتُ عن طراً عليك من الأندال ، وحلّ^٢ بساحتك من الأعلاج ، فقل لي : ابن فتح ، فأنعمتُ البحث ، وأعملت لطائف الكشف ، حتى صبح عندي أَنَّهُ كدّر صفوك عليّ ، وغيرَ شربك^٣ لديّ ، فقلت من هاهنا أتينا ، ومن هذه القوس اللثيمة رُمينا ، وقصّصي مع هذا العليج طويل . »

وكان ابن فتح ينتسب إلى بني هاشم ، فتقرب إلى يحيى بن عليّ المعتلي ، وقدّم إليه صديقه أبا القاسم الإفليلي ، ورفع قدره في حضرته . والظاهر أَنَّهُ كان يكره أبا عامر ، فاستطاع أن يبعد الإفليلي عنه بما له عليه من الدالة والتأثير . قال ابن

١ التفتّص : التتبع .

٢ الشرب بالكسر : الماء .

شُهيد في رسالته : « ولولا أنه متسبب إلى آل هاشم ، إلى عصابة أقتني كرمهم ، وأظلتني نِعَمهم ، ومُسْنَدٌ ، على العِلَّات ، من أبي جعفر^١ إلى وزير كان لي وَزَرًا^٢ ، رقرق شرايبي ، وأخصب به جنابي ، لأدركتُ بداره دائرة السوء ، وسريتُ إليها في لُمة^٣ من صعاليك الأحرار ، وصميم الرجال ، فأحرقتها على نازلها ، وجعلت عاليها سافلها . . . فالله الله في قبول هذا القرد والالتباس به ، فإنه قُدَّارٌ^٤ من لزمه ، وهو والفرّضي^٥ رضيعا لِبَّان ، وفرسا رهان . »

والفرّضي^٥ الذي يذكره هنا ، ويجعله صنوا لابن فتح في عدائه وسوء أخلاقه ، هو الوزير الكاتب خالد بن يزيد الكيميائي أبو عبد الله الفرّضي . وكان الاشتغال بالكيمياء يومئذ غير محمود عندهم ، ولا يسلم صاحبها من التهمة بدينه وخلقه ، ويخبرنا ابن شهيد في بعض رسائله أن لدى الفرّضي حشائش استفادها من كيميائه يستعملها في الشر والفتك . ويقول إنه قصده مرة على غير موعد ، فأنكشف له ما يخفي من أمر اشتغاله بهذه الصناعة ، فأطلع عليه أجد ثقافته ، فأذاعه بين الناس ، فحقّد عليه الفرّضي ، وصار يسعى إلى ضرره . قال :

« وقصدته يوماً ، على جهل بتلك الخليفة منه ، لأستريح إليه ، وألقي من شيشي عليه ، فألقيته قد خلا بابه ، وغاب بوابه ، فوبخت ، فثار إليّ صبيّ غريب أصبته هنالك ، قائلاً لي : « طال انتظارنا لك ! » وتقدمني ، وسرت ، حتى

١ أبو جعفر : أي أبو جعفر الممالي ، كان وزيراً كاتباً لعل بن حمود .

٢ وزراً : مؤثلاً .

٣ اللمة : الجماعة .

٤ قدار : عاقر ناقة صالح ، كان شوماً على قبيلته ثمود .

انتهيتُ إلى دار ذات أجوان^١ ، قد غشيها دُخان كقِطَع العَنَان^٢ ، تَبَقَّ منها صُنَانٌ^٣ من زَرَنِيخ وكِبْرِيت ، وزَنْجَفُور^٤ وأنزروت^٥ ، فتذكرت «يوم تأتي السماء بدُخان مُبِين يَغْشَى الناس ، هذا عذابُ أليمٌ» . فاستشعرتُ الشرَّ ، وأردتُ الفرَّ ، ثُمَّ التَفْتُ ، فإذا أنا بأكداسِ جمر ، وآلاتِ تير ، وأشخاصِ سود وصُفَر ، ثُمَّ أَفْضَيْتُ إلى بيت فيه عِدَّةُ أشباح ، كأنَّها قُبَاضُ الأرواح ، غرايب^٦ ، بأيديهم كلاليب ، رزادق^٧ ، قد تقلدت مطارق ، فلمَّا رأوني صاحوا : «فضحككم الواغل^٨» ، فامُحَمِّقوه من عاجل ! « فلمَّا نظرت إلى المنيَّة ، وخشيتُ فصل القضيَّة ، ضحكتُ إليهم وقلت : «تخطتكم النعمة ، ولا هُديتم سبيل الحكمة ، أهكذا تَعَجَّلُونَ ، ولا تَدْرُونَ من تُريدُونَ ؟ » قالوا : «ومن أنت ؟ » قلت : «من أخذ الطَّلُق^٩ ، فسحقه بالمِدَق ، وشق بيد الذكاء ، عن زهرة الأشياء ، فبشَّر الآباء بالأبناء . » فقالوا : «بنار أم بماء ؟ » قلت :

-
- ١ الأجوان : جمع جون كأرطاب جمع رطب بضم ففتح ، مفردها جونة ، وأصلها الهمز ، وهي سبط مغشى بجلد ، ظرف لطيب المطار ، ويطلق حل الحايية .
 - ٢ العنان بالفتح : السحاب .
 - ٣ الزنجفور : المعروف أنه يقال له الزنجفر ، وهو معدن متفتت بصاص يميل منه الخبز الأحمر ، ويتغير به لنوع من القمل يتشبه بالجلد .
 - ٤ الأنزروت : صمغ فارسي ، ويقال له أيضاً عنزروت .
 - ٥ الغرايب : جمع غريب ، وهو الأسود اللون ، والشَّيْخ يسود شبيه بالخضاب .
 - ٦ الرزادق : صفوف الناس .
 - ٧ الواغل : الداخل على القوم في طعامهم وشراهم .
 - ٨ الواغل : الشبرم ، وهو نبات له حب كالمدس ، وأصل غليظ ملاكن لباً ، يسبل البطن ، واستعمال لبته خطر . وإنما يستعمل أصله مصلحاً ، بأن يتنع بالخليب ويخلط بغيره من العقاقير ، ويصنع منه دواء . وشجر ذو شوك يقال إنه ينفع من الوباء .

« بهما جميعاً ، وبهواء . » فأومضوا^١ إليّ ضاحكين ، واستقبلوني معتذرين ، وقالوا : « كدت ، والله ، أن تُلْتَهَم ، وتكون السواد^٢ المُخْتَرَم^٣ ! » قلت : « وأين أبو عبد الله ؟ » قالوا : « انفراد يُرَقِّق ماء بَيْض ، ويصفق دم حَيْض ، وغرضه استخراج دُهن الحجر الكريم^٤ . » فقلت : « نفس^٥ حديث أو قديم ؟ » فنادوا : « أواه ، أواه ! على الخبير سقطتم ! » ثم تَلَطَّفتُ وخرجت ، تطير بي رجلاي ، وقد حقن الله دمي بعطفه ، واستنقطني من يدي مني بلطفه . ووصفت لمن استوفقتُه ذلك بعد أن استكتمته ، فجاس^٦ وخاس^٧ ، وكأني أودعتُ سري ريحاً . فاضطغن^٨ ذلك عليّ ، وأكد ذلك معاملة^٩ عاملني بها أيام حرب المدينة ، وكانت حبالها ، إذ ذاك ، منينة^{١٠} ، أعقبته وقع السوط على رأسه ، وعض^{١١} الحجل^{١٢} على ساقه ، وكان الأمير بها أبو أيوب^{١٣} بن المرتضى ، رضي الله عنهما ! »

وهذه الرسالة كتب بها أبو عامر إلى صديقه الموفق ، أبي الجيش مجاهد أمير دانية ، وذكر فيها أن وطأة الفَرَضِي اشتدت أيام المستظهر ، فحاول الإيقاع به ، فنحله شعراً في هجائه ، فوفاه الله شره ، وردَّ عنه أذاه ، ولم تنجح مكيدته

١ أومضوا : أشاروا .

٢ السواد : الشخص .

٣ المخترم : من أخذته المنية .

٤ الحجر الكريم : أي الحجر الفلسفي .

٥ النفس : الخيض ، من نفست المرأة كسع ، أي حاضت .

٦ جاس : طلب الشيء بالاستقصاء ، وتردد خلال الدور والبيوت .

٧ خاس : غدر وخائن ، وأخلف بالعهد .

٨ منينة : مقطوعة .

٩ الحجل بالكسر : القيد .

١٠ أبو أيوب : الخليفة المستعين .

عند الخليفة لأن ابن شهيد كان مقرباً إليه . ويلتمس من الموفق ألا يصغي إلى وشاياته وأكاذيبه ، فيقول :

« فكيف يصغي الموفق ، أيده الله ، إلى رجل هذه صفته ، وبيني وبينه ما قد شرحته وأوضحته ؟ فليُجرني من قبول حديث هذا الخبيث في ، وإصغائه إلى كذبه عليّ ، وليُجر نفسه من عاديته ، وينظر من وجه فائدته ، يجدّه أشقى الأشقياء ، وأضعف الضعفاء ١ »

ومن منافسيه الأدباء أبو جعفر أحمد بن عباس وزير زهير الصقلبي صاحب المريّة ، وكاتب ديوانه ؛ وكان كثير الصلف والته ، شديد الإعجاب بنفسه ؛ فلما دخل زهير قرطبة زمن الفتنة أظهر أبو جعفر من الكبر وسوء الخلق ما كرهه الناس به . قال ابن بسام : « وحسبك من جهله وعُجبه أن عامل أهل قرطبة الذين فيهم متماء ، وهم بقية الناس ، أيام دخلها مع زهير صاحبه ، بأسوا ما عنده ، فحجب كبيرهم أبا عمر بن أبي عبدة من غير عذر ، وما عُرِف عباس أبوه إلا بخدمة ابن عمته ، وتنقص أديبهم أبا عامر بن شهيد ولم يكن يحسن مستملاً له . »

ويحدثنا ابن شهيد عما جرى له معه فيقول :

« لما قدم زهير الصقلبي ، فتي بني عامر ، حضرة قرطبة من المريّة ، وجّه أبو جعفر بن عباس وزيره عن لُمة من أصحابنا ، منهم ابن بُرد ، وأبو بكر المرواني ، وابن الحنّاط ، والطّبيّ ، فسألهم عني ، وقال : « وجّهوا عنه . » فوافاني رسوله مع دابة له بسرج مُحكّي ثقيل ؛ فسرت إليه ، ودخلت المجلس ، وأبو جعفر غائب ، فتمحرك المجلس لدخولي وقاموا جميعاً إليّ ؛ حتى طلع

١ محل : في الأصل جلي ، والتصحيح اللجنة المصرية عن نفح الطيب .

أبو جعفر علينا ساحباً لذيلٍ لم يَرَّ أحدٌ سَحَبَه قبله ، وهو يترنم ، فسَلِمَت عليه سلام من يعرف حقَّ الرجال ، فردَّ ردّاً لطيفاً ، فعلمت أن في أنفه نَعْرَةً^١ لا تخرج إلاَّ بسعوط الكلام ، ولا تُراض إلاَّ بِمُسْتَحْصِدِ النظام^٢ . فرأيت أصحابي يُصْبِخُونَ إلى ترنّمه ، فسألتهم عن ذلك ، فقال لي الخنَاطِيُّ ، وكان كثيرَ الإنحاء عليّ ، جالباً في المحافل ما يسوء الأولياء ، إليّ : « إن الوزير حضره قَسِيمٌ من شعره ، وهو يسألنا إجازته . » فعلمت أني المراد . فاستنشدته ، فأَنشده ، وهو :

مرّضُ الجفونِ ، ولُغْةٌ في المنطِقِ

فقلت لمن حضر : « لا تُجهدوا أنفسكم ، فلنسم المراد . » فأخذت القلم وكتبت بديهة :

مرّضُ الجفونِ ، ولُغْةٌ في المنطِقِ ، سَيَّانٍ ، جَرّاً عِشْقَ من لم يَعشِقِ
مَنْ لي بِاللُغِ لا يَزَالُ حَدِيثُهُ بُذْكِ ، عَلَى الْأَكْبَادِ ، جَمْرَةَ مُحْرِقِ
يُنْبِي ، فِينْبُو فِي الْكَلَامِ لِسَانُهُ ، فَكَأَنَّهُ مِنْ خَمَرٍ عَيْنِهِ سُقِيَ
لا يُنْعِشُ الْأَلْفَاظَ مِنْ عَثَرَاتِهَا وَلَوْ أَنِهَا كُتِبَتْ لَهُ فِي مُهْرَقِ^٤

ثم قمت عنهم ، فلم أَلْبَثْ أن وردوا عليّ ، وأخبروا أن أبا جعفر لم يَرْضَ ما جئنا به من البديهة ، وسألوني أن أحمل مكاوي الكلام على حِتَارِهِ^٥ . وذكروا

١ النعرة : الخيلاء والكبر .

٢ المستحصد : الحبل المستحكم .

٣ النظام : أي تأليف الكلام ، من نظم القول .

٤ المهرق : الصحيفة .

٥ الحتار : حرف الجفن ، وسطقة الدبر .

أن إدريس هجاه فأفحش ، فلم أستجسب الإفحاش ، فقلت فيه معرضاً ، إذ التعريض من محاسن القول . »

والآيات فيها فحش كثير ، فما يحسن إثباتها ؛ قال ابن بسام : « وليت شعري ما التصريح عند أبي عامر ، إذا سمي هذا تعريضاً ؟ ولولا أن الحديث شجون ، والتتابع فيه جنون ، والكلام ، إذا لان قيادته ، سهل اطراده ، وإذا قرب بعضه من بعض ، لم يفرق فيه بين سماء وأرض ، لما استجرت أن أشين كتابي بهذا الكلام البارد معرضه ، البعيد من السداد غرضه ، وقد يطغى القلم ، وتجمع الكلم . »

ونعلم من حديث أبي عامر عن الوزير ابن عباس أن الحنطاطي كان كثير الإنحاء عليه ، جالباً إليه في المحافل ما يسوء الأولياء . وصاحبه هذا هو أبو عبد الله بن الحنطاط الضرير ، أحد زعماء النظم والنثر في عصره . قال ابن بسام : « وكانت بينه وبين أبي عامر بن شهيد بعد تمسكه بأسبابه ، وانحياشه — كان — إلى جنبه ، مناقضات في عدة رسائل وقصائد أشرقت أبا عامر بالماء ، وأخذت عليه بفروج الهواء . »

ولدينا من هذه المناقضات واحدة للحنطاطي يصف بها زهو أبي عامر وخيلاء واعتداده بنفسه ، عائياً عليه إسهابه وتطويله ، قال :

« الإسهاب كلفة ، والإيجاز حكمة ، وخواطر الألباب سهام ، يُصاب بها خواطر الكلام ، وأخونا أبو عامر يُسهب نثراً ، ويطيل نظماً ، شاعراً بأنفه ، ثانياً من عطفه ، متخيلاً أنه قد أحرز السبق في الآداب ، وأوتي فصل الخطاب ، فهو يستقصر أسانيد الأدباء ، ويستجهل شيوخ العلماء . »

ويقول في مكان آخر داعياً إياه إلى معارضته ، متوقفاً عجزه عن اللحاق به :

« فأنشدنا أخاك الشهيدي ، وكلّفه على العروض والقافية معارضتها ،
وحملّه على اللين والشدّة مقارضتها ، فستوقد بقلبه قِبَساً ، وتضرب في أذنه
جَرَساً ، فيتبيّنُ به حفظه ، ويعرف لغيره فضله . »

فهؤلاء الخصوم والحساد أقصّوا مضجع ابن شهيد ، وكدّروا صفو حياته
السياسية والاجتماعية ، وأقلقوا حياته الأدبية باعتراضاتهم ومناقضاتهم ، فشغلوا
جانباً من شعره ورسائله ، وحملوه على اصطناع النقد ، وتصنيف رسالة التوابع
والتوابع .

أدب ابن شهيد

الشاعر

الشعر في بيت أبي عامر عريق النجار ، متلاحق الآثار ، فأبوه عبد الملك شاعر ، وكذلك جدّه مروان ، وجدّ أبيه أحمد بن عبد الملك ، ثم عمّه وأخوه شاعران . وهو أجودهم شاعرية ، وأخصبهم قريحة ، وأطولهم نفساً ، وأوسعهم شهرة ، ولكن لم يُجمع شعره في ديوان ليُحفظ من الضياع ، أو جُمع ولم يصل إلينا ، وإنّما بلغنا منه ما رواه ابن بسّام في الذخيرة ، والثعالبي في يتيمة الدهر ، والفتح بن خاقان في مطمح الأنفس ، والمقري في نفح الطيب ، وابن خلكان في وفيات الأعيان . فكان لنا جملة صالحة من القصائد والمقطّعات والأبيات على اختلاف أبوابها وأغراضها ، مع أن المؤرخين اقتصروا على الاختيار ، فقلّما أثبتوا قصيدة كاملة ، حتّى إن ميمبته الطويلة التي دوّن ابن بسّام منها نحو ثمانين بيتاً ، لم تخلص إلينا بتمامها ؛ وكان ابن الحنّاط يعيبه بتطويل الشعر كما مرّ بنا آنفاً .

بيد أن ما وصل إلينا من شعره كاف لأن يطلعنا على صفاته العامة والخاصة . ويجيز لنا دراسته وإيداء الرأي فيه ، لأنّه يشتمل على مختلف أغراضه ومسالكه في نواحي التفكير والتعبير . فقد طرق من الأبواب والأغراض ما طرّقه الشعراء في عصره وقبل عصره ، فمدح ورثى وهجا ، وافتخر وتغزل وشكا ، ووصف

المرأة ومجالس اللهو والشراب ، والطبيعة والصيد ؛ وطلب الحديد في انسحابه على أذيال القديم دون أن يكون له أسلوب شخصي يميّزه من غيره ، إذا ذكرت أساليب الشعراء . ومن غريب أمره أن يأخذ على أقرانه تصديرهم قصائد المدح بعرائس الشعر القديم ، ولا يرى غضاضة في وقوفه على الطلول وذكر الديار والمطيّ ، وهو نزيل القصور ، وريب الحضارة الأندلسيّة . قال :

« ومما يكرّم المدّعي لصناعة الكلام ، إذا اعتمد وصف حالة ، أن يستوفي جميعها ، ويكون ما يطلبه من الإبداع والاختراع فيها غير خارج عنها وما هو بسبيلها ، فذلك أبهى لكلامه ، وأفخم للمتكلم به ، وأدلى على أن الكلام له ، لا كما شهدته يوماً عند ابن حمّود ، وقد صدر عن ابن الشّرب ، ومدّحه عدة شعراء ، صدورُ أشعارهم لزينب والرباب ولتميس وقرنئى ، وأعجازها للجود والكرم وبذل اللّهي ، ولم يُلَمِّم أحد منهم بذلك الغرض والمغزى إلاّ في بيتين أو ثلاثة ؛ فأنشدته أنا يومئذ من جملة قصيدة أولها :

فريقُ العِدى من حدّ عزمك يفرّقُ ، وبالدهر ممّا خاف بطشك أولتُ^١ »

وهذا النقد جميل يدل على بصره بالشعر ومذاهبه ، ولكنه إذا طابق قصيدته هذه ، فلا يطابق سواها مثل قوله في مدح المؤمن :

هاتيك دارهمُ ، فقف بمعّانها تجدر اللّموع تجدُّ في همّلائها^٢
عُجنا الرّكّاب بها ، فهبّج وجدنا دِمْنٌ ذَعَرْنَ السّرْب من أدامانها^٣

١ الأولق : الجنون ، وما يشبهه .

٢ المعدن : المنزل .

٣ الأدمان : الرماد والسرّيق المتلبّد .

فقد غلب الأسلوب القديم على استهلالاته ، وأسلكه في نظام المحافظين على
عمود الشعر التقليدي ، فسار على خطتهم في الوقوف والبكاء وذكر الدمن
والآرام ، واستمد من كلام المتقدمين ألفاظه ومعانيه ، فحفلت أشعاره بالرواسم
المجمدة ، والجمل الجاهزة ، فكان فيها مشترك الفكر والخيال والتعبير :

أَمَّا الرِّيحُ بِجَوِّ عَاصِمٍ فَحَلَبَ أَخْلَافَ الْغَمَائِمِ

*

خَلِيلِي عُوْجَا ، بَارِكْ اللهُ فِيكُمَا ، بَدَارَتَهَا الْأُولَى نُحْيِي فِتْنَاءَهَا

ولم يقتصر في تناول على الشائع العام من كلامهم ، بل جاوزه إلى الشخصي
الخاص الذي يُعَدُّ أخذه من السرقات الأدبية ، فاستباح أنعام البدو وكنوز
العباسيين ؛ فإذا وصف الصيد على طريقة امرئ القيس ، وذَعَرَ الوحش
بجواده ، وأَكَلَ الشواء مثله ، لا يغفل عن تمسيح الأكف بعد الطعام :

نَمَسَّحُ بِالْحَوْذَانِ مِنْهُ أَكْفَتَنَا ، إِذَا مَا اقْتَنَصْنَا مِنْهُ غَيْرَ قَلِيلٍ^١

ولنما فعل ذلك اتباعاً للملك الضليل حيث يقول :

نَمْسُ بِأَعْرَافِ الْخِيُولِ أَكْفَتَنَا ، إِذَا نَحْنُ قَمْنَا عَنْ شَوَاءِ مُضَهَّبٍ^٢

ووصف خليل ابن حمَّود في الحرب ، فلم يتحرج من الإغارة على أبي

١ الحوذان : نبت نوره أصفر .

٢ المضهب : اللحم المقطع ، والمشوي على حجارة محبأة ، ولم يبالغ في نضجه .

الطيب المثني ، قال :

وخيل تمشي للوغى يبطونها ، إذا جعلت بالمرتقى الصعب تزلقُ

قال ابن بسام : « وهذا البيت مما لم يُحسن أبو عامر سرقة ، ولا بلغ به طبقة ، وهو من قول أبي الطيب :

إذا زلقتُ ، مشيتها يبطونها ، كما تمشي في الصعيد الأراقمُ

وربما حاول إخفاء سرقة بتفصيل المعنى وتطويله ، فقد سمع الرمادي ، وهو شاعر أندلسي ، يقول :

ولم أرَ أحلى من تبسم أعين ، غداة النوى ، عن لؤلؤ كان كاميناً

فأعجبه تبسم العيون عن لؤلؤ الدمع ، فقال :

ولما فشا بالدمع من سرّ وجدنا إلى كاشحيناً ما القلوب كواتمُ
أمرنا بإمساكِ الدموعِ جفوننا ، لبشجى بما تطوي عذولُ ولائمُ
فظلّت دموع العين حيرى كأنها ، خيالَ مآقينا ، لآلِ توائمُ
أبى دمعنا يجري مخافة شامت ، فنظّمه بين المحاجر ناظمُ
وراق الهوى منا عيون كريمة ، تبسمن ، حتى ما تروق المباسمُ

وليس من غرضنا أن نتقرى سرقات ابن شهيد واحتذائه ، وإنما أخرجنا أمثلة منها لندل بها على شيوع بنات أفكاره وضعف حصانتها . ومن ذلك معارضاته للشعراء ، يبني قصائده على بحور قصائدهم وقوافيها ، ويأخذ من معانيها وألفاظها ،

فيشبه شوقي من هذا القبيل ، أو شوقي يشبهه ، فقد عارض رائية ابن أبي ربيعة
مترسماً طريقه إلى صاحبه بقوله :

وأخرى اعتلقنا دونهنَّ ، ودونها قصورٌ ، وحُجَّابٌ ، ووالٍ ، ومعرشٌ
يُزَيِّنُها ماء النعيم ، وحفَّها من العيش فينانُ الأراكِـةِ أخضرٌ
إذا رامها ذو حاجةٍ ، صدَّ وجهه طُـبـي الباتراتِ والوشيجُ المكسَّرُ
تكلَّفْتُها ، والليلُ قد جاش بجره ، وقد جعلتُ أمواجه تنكسرُ ،
إلى بيت ليلى ، وهو فردٌ بذى الغضا ، يُضيء كعين المستهامِ ويزهـرُ

وعارض بائية البحرى بقوله : « هذه دار زينب والرباب » وقد قال أبو
عبادة :

ما على الركب من وقوف الركبِ في مغاني الصبي ، ورسم التصابي

وأمثال هذه المعارضات وما يشاكلها كثير في شعر أبي عامر ، فما يفتأ
يذكرُك بغيره ، فتلقاه تابعا لا متبوعا ، ومن أجلها انكشفت مقاتله لخصومه ،
فرموه بقوارص النقد ، وشكوا في شعره ، وعابوا أخذه عن غيره ، فدافع عن
نفسه في رسالة التوابع والزوابع ، إذ جعل شيطانَ المتنبي يقول فيه : « سمعت
أنه يتناول . » فيرد عليه بقوله : « للضرورة الدافعة ، وإلا فالقريحة غير صادقة ،
والشفرة غير قاطعة . »

ورأينا أنه لم يتوكأ على القدماء وحدهم ، بل تساند إلى المحدثين أيضاً : فشعره
مزيج من جاهلي إسلامي ، وعباسي أندلسي ، كسائر الشعراء المولدين في الشرق
والغرب . ولئن عداه الطابع الخاص في أسلوبه المشترك ليُعرف به كغيره من

ذوي الطوابع الشخصية ، لم يعدّه النَّفَسُ الشعري ، والحسّ المرهف ، وبراعة الوصف ، وحسن التركيب ، فإذا قرأت شعره ، وغابت عنك فيه قوة الإبداع ، ومُعجزة الاختراع . تروك منه نفحات زكية الشعور ، دقيقة التصوير ، محكمة التعبير ؛ فيها من الحياة والحركة واللون والنغم ما يجيز له الوقوف بجانب الشعراء المحسنين ، على اعتدال درجة الإحسان ، وانخفاضها عن درجة الإبداع .

والشعور عنده لا يتعدّى الإحساس بالشيء ، ميلاً إليه أو نفوراً منه ؛ فما هو بالعاطفة المتدفقة ، ولا الروحانية العميقة . وتصويره قريب المأخذ ، يسيرُ التلوين ، تكتنفه المادة ، ولا يخلو عنه الإحياء والتشخيص ، كوصفه للورد في رده على الوزير أبي مروان . قال ابن بسام : « وقد ضارع أبو عامر هذا محاسن الطبقة العالية البغدادية المضارعة التي بانت فيها قوته ، ولدئت اختراعاته ومقدرته ، فصار يتناول المعنى الحسن فيصبره مُحَسَّساً بحسن مَسَاقَه . »

ولغته مختارة الألفاظ ، متينة التركيب ، على غير صلابة أو خشونة ، وتغلب الصنعة على صياغته ، فيكثر من الجناس والإرصاد والتصريع ، والتشابه والإشارات والأمثال واستخدام معاني أسماء النجوم ؛ غير أنها لا تنبو عن السمع لأنه لا يسرف فيها ولا يتبغّض . ولم يكن يجهل ذلك التكلف في طبعه ، فجعل شيطانَ أبي نواس في التوابع والزوابع يقول له عندما سمع شعره : « لله أنت ، وإن كان طبعك مختراً منك ! »

وقلما تلقى النعومة في نغمة أشعاره لتوفّره على الجزالة ، وشدة الأسر ، واعتيام الألفاظ الفخمة ؛ فالجمال الفني عنده مرتفع الثبرة في الغالب ، لا ينخفض جرسُه إلا في بعض نغماته . وقد أشار إلى ذلك بطبعه النقاد عندما أراد أن يصطنع النغم الرقيق على مثال أبيه ، بعدما أورد طائفة من مدائحه ومفاخره ؛ قال ابن بسام : « وأنشد أبو عامر إثر هذا قطعة شعر لأبيه ، هي ثابتة في القسم الرابع من

هذا التصنيف ، قال فيها :

قهقهة الإبريق منّي ضحكاً ، ورأى ريشة رجلي فبكي

ثم قال : فإن استهل الطاعن صارخاً ، وقال : هكذا الشعر ، وهكذا الطبع ، وهذا الماء رقة وعذوبة ، والهواء لطافة وسهولة ، لا ما كنا فيه من الشنائع والقعاقع ! قلنا له :

أذن الديك ، فثب ، أو ثوب ، وانفتح القلب بماء العنب
وتأمل آية معجزة ، ما قرأنا مثلها في الكتب
ركع الإبريق من طاعته ، وبكى ، فابتل ثوب الأكوّب
ولول الميزهر ينفي كربي ، ونطربت ، فأعيا طربي
وربيب قام فينا ساقياً ، كالرّشا أريض بين الربرب
ظبية ، دون الصبايا قصّصت ، فأتت غيداء في شكل صبي
فتح الورد على صفحتها ، وحماه صدغها بالعقرب
فمشت نحوي ، وقد ملكتها ، مشية العصفور نحو الثعلب «

فهذه الأبيات جدبيرة بالشاعر الأندلسي ، غير أنه لم يكثر من أمثالها لميله إلى الأسلوب القديم ، حتى إنه لم يلتفت إلى فن الموشحات ، مع ملاءمتها لمجالس هوه وشرابه ، فأعرض عنها ، في حين كان معاصره أبو بكر عباد بن ماء السماء

١ ثب : ارجع . ثوب : أقم الصلاة ، وفيه مراعاة النظير لقوله : أذن الديك انفتح : اغسل مطهراً .

قد اشتهر بها ، وأتقن صنعها ، وقوم اعوجاجها ؛ ولكنه جارى العباسيين في
إحياء الطبيعة ، وتمثيلها امرأة حسناء يتلذذ بأوصافها :

سَهَرَ الحَيَا برياضِها ، فأَسالها ، والثَّورُ نائمٌ^١
حتى اغتدت زَهْرَاتُها كالغيد باللَّجِّ العَوائِمِ^٢
مِنْ قِيَّاتٍ لم تُبَلْ^٣ كَشَفَ الخدود ولا المعاصمِ^٤
وصغارِ أبكارٍ شَكَتْ خجلاً ، فعادت بالتمائمِ^٥
وردٌ ، كما خجلت خدود الـ مِينٍ من لحظات هائمِ^٥
وشقيقُ نَعمانٍ شَكَتْ صفحاته من لطمٍ لا طِمِ^٥
وغصونُ أشجارٍ حكَّتْ رقص المائِمِ للمائِمِ^٥

وتحدث إليها وسخرها المدهح أميره ، على طريقة الأندلسيين ، بقوله يمدح
المؤمن :

وغمامٌ باكرتنا عينه ، تُترِعُ الأفقَ بدمعٍ صَيَّبِ^١
مثلَ بحرٍ جاءنا من فوقنا ، جِرمُه من لؤلؤٍ لم يُثَقَّبِ^٢
فدنا ، حتى حسينا أنه يمسحُ الأرضَ بفضل الهيدبِ^٣

١ الحيا : المطر .

٢ لم تبل : لم تبال .

٣ العين : السحاب من ناحية القبلة .

٤ جرمه : جسمه . من لؤلؤ لم يثقب : أراد به البرد .

٥ الهيدب : السحاب المتدلي أو ذيله .

فسألناه ، وقد أعجبنا حشوه العين بمراًى معجب :
أنت ماذا؟ قال : مزنٌ علّمت كفه النّفحة كفّاً درّباً
سامي بالشرق أن أسقيكم ، رحمةً منه ، بأقصى المغرب^١
فسألناه : أين ذاك لنا ، قال : هل يخفى ضياء الكوكب؟
ملكٌ ، ناصبٌ من خالفكم ، عامري المتى والمنصب^٢
فعلنا أنها نفحةٌ من ورث الجود أباً بعد أب

ووصف خمرة الدبر والساقى على أسلوب أبي نواس وأصحابه المُجّان ؛
واصطنع الغزل القصصي اللين كبشار ، وجاراه في غزله العبي على لسان الحمار
والبغل . وكان شعره في سجنه وعلته أفيض أقواله عاطفة ، وأبلغها تأثيراً ،
لاختلاف الشواعر النفسية فيه : من ألم وضعف ، ومهانة ، وتوقع للموت ، وإباء
وعزّة ، ومودة للإخوان . وقد أوردنا أمثلة مختارة من كلامه ، وفي رسالة التوابع
والزوابع طائفة حسنة منها ، تشتمل على مختلف فنونه وأغراضه ، يمكن الرجوع
إليها في مواطنها من هذا الكتاب ..

الكاتب

ذكر ابن خلدون من آثار ابن شهيد كتاب كشف الدك وآثار الشك ، ورسالة
التوابع والزوابع ، وكتاب حانوت عطار ، ورسائل كثيرة . ولكن لم يبلغ إلينا

١ النفحة : العطية .

٢ سامي : كلفني .

٣ ناصب : عادى . المنصب : الحسب والأصل .

منها إلا فصول من التوابع والزوابع أوردتها ابن بسّام في ذخيرته ، وجملة رسائل مختلفة الأغراض رُويت في الذخيرة وبيتمة الدهر للثعالبي . قال ابن بسّام : « وكان أبو عامر شيخ الحضرة العظمى وفتاها ، ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاها . وينبوع آياتها ، ومادة حياتها ، وحقيقة ذاتها ، وابن ساستها وأساتها ، ومعنى أسمائها ومسمياتها ، نادرة الفلك ، وأعجوبة الليل والنهار ؛ إن هزل فسيجمعُ الحما ، أو جدّة فزئير الأسد الضرغام . نظمٌ كما اتسق الدرُّ على النحور ، ونثرٌ كما خلط المسك بالكافور ، إلى نوادر كأطراف القنا الأملود ، تشقُّ القلوب قبل الجلود ، وجوابٍ يجري مجرى النَّفس ، ويسبق رجوع الطرف المختلس . »

وقال فيه ابن حيّان :

« كان أبو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفرَ الكلام ، وإذا تأملته وتسنّته ، وكيف يجري في البلاغة رسنّه ، قلتَ : عبد الحميد في أوانه ، والجاحظ في زمانه . والعجب منه أنّه كان يدعو قريحته إلى ما شاء من نثره ونظمه ، في بديهته ورويّته ، فيفقد الكلام كما يريد من غير اقتناء للكتب ، ولا اعتناء بالطلب ، ولا رسوخ في الأدب ؛ فإنه لم يوجد له ، رحمه الله ، فيما بلغني بعد موته ، كتاب يستعين به على صناعته ، ويشحذ من طبعه إلاّ ما لا قدّر له ، فزاد ذلك في عجائبه ، وإعجاز بدائع . وكان في تنميق المزل والنادرة الحارّة أقصرّ منه على سائر ذلك . وشعره حسن عند أهل النقد ، نصرّف فيه نصرّف المطبوعين ، فلم يقصّر عن غايتهم . »

« وله رسائل كثيرة في فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزال : قصارٌ وطوال ، برّز فيها شأوه ، وأبقاها في الناس خالدة بعده . وكان في سرعة البديهة ، وحضور الجواب وحدّته ، مع رقة حواشي كلامه ، وسهولة ألفاظه ، وبراعة

أوصافه ، ونزاهة شمائله وخلائقه ، آية من آيات الله خالقه . »

وهذه الرسائل التي أُلح إليها ابن حيّان منها ما خاطب به الأمراء والوزراء ، كرسائله إلى المؤتمن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر ، وإلى الموفق مجاهد أمير دانية ، وإلى الوزير ابن عباس ؛ ومنها ما خاطب به الأدباء ، كرسائله إلى أبي القاسم الإفريقي ، وابن الحنّاط ، وأبي بكر أشكمياط ؛ ومنها فصول اجتماعية تاريخية ، وأبحاث أدبية ضمّنها نظراته وأحكامه في النقد الأدبي ، سنعود إليها في كلامنا على ابن شهيد الناقد ؛ ومنها رسالة التوابع والزوابع ، وسنخصّصها بدرس تحليلي على حدة .

ومن حسنات رسائله أنها تضيء جانباً من حياته لم يأبه له المؤرخون ، أو أعاروه من الاهتمام قليلاً ، فبدت من خلالها علاقاته السياسية والأدبية ، وصداقاته وعداواته ، ووفائوه لأولياء نعمته ، ومودّته للأصحاب والإخوان ، وحدّته على الخصوم والحساد ، وسلاطة لسانه في السخر والتعريض وصريح الهجاء . فرسلته الطويلة إلى المؤتمن تطلّعنّا على ما كان له ولأبيه من الخطوة في الدولة العامرية ، وعلى بعض شؤونه في صباه . ورسائله إلى الموفق ترجمة لما وقع بينه وبين الفرّضي من العداة والشحناء . ورسائله إلى أبي القاسم الإفريقي فيها عتبه عليه لازوراره عنه ، وجريه في حلبة الفرّضي وابن فتح . ومن فصوله وأحاديثه نستخرج جملة من أخباره مع الوزراء والأدباء وآرائه في أبناء زمانه ممّن انتحلوا السياسة ، أو طلبوا العلم ، أو احترّفوا التعليم . وله في صفة معلمي قرطبة ، وتصوير أخلاقهم ، وشرح أحوالهم في مجالس الأدب ، ما يذكرنا بالناظر وسخره اللاذع بهذه الجماعة . فمن ذلك قوله :

« وقومٌ من المعلمين بقرطبتنا ممّن أتى على أجزاء من النحو ، وحفظ كلمات من اللغة ، يحنّون على أكباد غليظة ، وقلوب كقلوب البُعران .

ويرجعون إلى فِطْنِ حَمِيَّةٍ ، وأذهانٍ صَدِثَةٍ ، لا مَتَفَدَّ لها في شُعاعِ الرُّقَّةِ ، ولا مَدَبَّ لها في أنوارِ البيانِ . سقطت إليهم كتب في البديع والنقد فهموا منها ما يفهمه القرد اليماني من الرقص على الإيقاع ، والزمر على الألحان ؛ فهم يصرفون غرائبها ، فيما يجري عندهم ، تصرفاً من لم يُرْزَقَ آلة الفهم . ومن لم تكن له آلة الصناعة ، ممّا هي مخصوصة بها ، ولا تقوم تلك الصناعة إلا بتلك الآلة . فهو كالحمار لا يمكنه أن يتعلّم صناعة ضرب العود والطنبور ، لتوتّد رُسْغِهِ^١ واستدارة حافره ؛ ولا له بنانٌ^٢ يحسّ به على دَسْتَانٍ^٣ . ولو جاز أن يكون حمار يغني :

ما بالُ أنْجُمِ هذا الليل حائرةً ، أضلّتِ القصدَ ، أم ليست على فلّكِ ؟

وشبيهه ، من أجل أن له حنكاً ولساناً ، وقصة رثة ، لما جاز أن يوقع بالمضرب على الأوتار ، ويتممّ بحسّ الأنامل ، ويرخي الوتر في مجرى السبّابة والبنصر ، فيبيل بنشيدته ، ويولول في ضربه على بسيطه .

فهذه حال العصابة من المعلمين : يدركون بالطبيعة ، ويقصّرون بالآلة . وتقصيرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة من فساد الآلة القابلة للروحانية ، والمخادمة لآلات الفهم ، الباعثة لرقيق الدم في الشريانات إلى القلب ، وزيادة غِلْظِ أعصاب الدماغ ونقصانها عن المقدار الطبيعي . وممّا يعين على ذلك

١ ولا تقوم : في الأصل : لا تقوم .

٢ الرسغ : الموضع المستدق بين الحافر وموصل الوظيف من اليد والرجل في الدابة .

٣ اندستان من العود : مكان إصلاح الأوتار وشدها ، جمعه دساتين ، في الأصل دسْتَان وهو تصحيف .

بالحدس وطريق الفراسة فسادُ الآلة الظاهرة ، كفرطحة الرأس وتسفيطه^١ ،
ونتوء القمحدوة^٢ ، والتواء الشّدق ، وخزَر العين^٣ ، وغِلَظ الأنف ، وانزواء
الأرنية^٤ ، فنستعيد بالله ألاّ يُشَوِّه خلقه قلوبنا ، ولا يُجسِّي أجرام أكبادنا ،
ويضمّ أوتارنا وأعصابنا ، ولا يُعظّم أنوفنا ، ولا يجعلنا مثلة للعالمين ! »

وقال فيهم أيضاً :

« ومما علّم من خُلِق هذه العصابة ، إذا لمحتنا أبصارهم قابلونا بالملق ،
وهم منظرون على حسد وحق . فإذا جمعتنا المحافل ، وضممتنا المجالس ، تراهم
إلينا مُبصبين^٥ ، وعن الأخذ في شيء من تلك المعاني زائغين . وإنما يتبين
تقصير المقصر ، وفضل السابق المبرز ، إذا اصطكت الرُكْب ، وازدحمت
الحلق ، واستعجل المقال ، ولم توجد فُسحة لفكرة ، ولا أمكنت نظرة لروية ؛
أو في مجالس الملوك عند أنسها وراحتها ، فإنه يقع فيها ويجري لديها ما لا ينفع
له الاستعداد ، ولا ينفذ فيه غير الطبع والغريزة المتدفقة . فترى الجواد السابق
إذ ذاك مُتشفواً^٦ بأذنه ، باحثاً لكديده^٨ الإحسان بيده ، طامع النظر ، صهصليق^٩
بالصليل ، وأهل الصنعة خرّس ، لا يُسمع لهم جرّس ، ولا شيء عندهم غير

١ فرطحة الرأس : عرضه . تسفيطه : محاكاته لسط ، وهو وعاء كالقفة .

٢ القمحدوة : مؤخر القذال .

٣ خزَر العين : انكسار بصرها وضيقها وصفرها ، أو نظرها بأحد الشقين ، أو حوافها .

٤ الأرنية : طرف الأنف ، وانزواؤها : تجمعها وتقبضها .

٥ يحصي الشيء : يجعله صلباً .

٦ مبصبين : فاتحين أعينهم ، من يصبص الجرو فتح عينيه ، أو بمعنى متعلقين كتبصص .

٧ متشفواً : أي متطلماً إلى الخير .

٨ الكديد : الأرض الغليظة .

٩ الصهصليق : الشديد من الأصوات .

حَسَوِ الكَاسَ . وَشَمِّ الآسَ ، وَتَنفَسِ الصُّعْدَاءَ ، قَدْ أَصْفَرَتْ أَلْوَانُهُمْ ، وَقَلَصَتْ شِفَاهُهُمْ ، كَانَتْهُمْ مِنْ رِجَالِ عُدْرَةٍ . »

وكذلك بحثه في الكتابة وشروطها ، وصفات أصحابها ، يقرب الحوار بينه وبين عبد الحميد . وإذا رأيناه يُخرج الجاحظ من طبقة الكتاب ، فإنما أراد بهم كتاب الملوك ، ولم يُرد الكتابة بالمعنى المطلق ، كما توهم بعض النقاد من أهل زماننا . قال :

« ذُكِرَ يوماً عند أبي القاسم سهل بن هارون والجاحظ ، فَضَرَبَ فِيهِمَا مِثْلَ الْعَامَّةِ : « بَيْنَهُمَا مَا بَيْنَ الْمَلَأِئِكَةِ وَصِيَّانِ الْحَرَسِ . » هَذَا مِنَ الْإِنْجَاءِ الْعَظِيمِ عَلَى سَهْلٍ ، وَالْأَوَّلَى أَنْ يَسْمِيَ مُحْسِنِينَ ، إِلَّا أَنْ سَهلاً كَاتِبُ سُلَاطِينَ ، وَالْجَاحِظُ مُؤَلَّفُ دَوَاوِينٍ . وَقَدْ يُوَدِّي النَّظَرَ إِلَى أَنَّهُمَا فِي طَرِيقَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ ، وَكِلَاهُمَا عَمَسَ فِي بَابِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَرَّ أَغْبَنُ مِنَ الْجَاحِظِ لِنَفْسِهِ ؛ إِنْ كَانَ وَاحِدَ الْبَلَاغَةِ فِي عَصْرِهِ ، فَمَا بَالُهُ لَمْ يَلْتَمَسْ بِهَا شَرَفَ الْمُنْتَزِلَةِ بِشَرَفِ الصَّنْعَةِ ، وَقَدْ رَأَى ابْنَ الزُّبَيْرَاتِ وَإِبْرَاهِيمَ بْنَ عَبَّاسٍ بَلَّغَا بِهَا مَا بَلَّغَا ، وَهُوَ يَلْتَمَسُ فَوَائِدَهُمَا وَالْجَاهُ بِهِمَا ؟ فَلَا يَخْلُو فِي هَذَا إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَقْصَرّاً عَنِ الْكِتَابَةِ وَجَمْعِ أَدَوَاتِهَا ، أَوْ يَكُونَ سَاقِطَ الْهِمَّةِ ، أَوْ يَكُونَ إِفْرَاطُ جَحْوِظٍ عَيْنِيهِ قَعْدَ بِهِ عَنْهَا ، كَمَا قَصَّرَ بِي أَنَا فِيهَا ثِقَلُ سَمْعِي ، وَبِأَبِي الْقَاسِمِ وَرَمْتُ أَنْفَهُ . إِذَا لَا بَدَّ لِلْمَلِكِ مِنْ كَاتِبٍ مَقْبُولِ الصُّورَةِ تَقَعُ عَلَيْهِ عَيْنُهُ ، وَأُذُنٌ ذَكِيَّةٌ تَسْمَعُ مِنْهُ حِسَةً ، وَأَنْفٌ نَقِيَّةٌ لَا تُذَمُّ أَنْفَاسُهُ عِنْدَ مِقَارِبَتِهِ لَهُ . وَلِذَلِكَ اسْتَحْسَنُوا مِنَ الْكَاتِبِ أَنْ يَكُونَ طَيِّبَ الرَّائِحَةِ ، سَلِيمَ آلَاتِ الْخَوَاسِ ، نَقِيَّ الثَّوْبِ ، وَلَا يَكُونَ وَسِخَ الضَّرْسِ ، مُنْقَلَبَ الشَّقَةِ ، مُكْحَلَّ الْأُظْفُورِ ، وَضَرَّ الطُّوقِ . وَرَبَّمَا أَنْكَرَ مُنْكَرٍ قَوْلُنَا فِي شَرَطِ جَمْعِ أَدَوَاتِ

الكتابة. فقال : « وأيّ أداة نقصت الجاحظ ؟ » فنقول : أولُ أدوات الكاتب العقلُ . ولا يكون كاتب غير عاقل . وقد نجد عالماً غير عاقل ، وجدّلياً غير حصيف . وفقهياً غير حليم . وقد وجدنا من ينسب العقل إلى سهل أكثر من نسبه إلى الجاحظ . لو شهد الجاحظ سهلاً يخادع للرشيد مُلكاً ، ويدبّر له حرباً . ويعاني له إطفاء جمرة فتنة ، مستضلعاً في ذلك كله بعقله ، وجودة علمه ، لرأى أن تدك السياسة غير تسطير المقال ، في صفة البغال ، وغير الكلام في الجُرذان ، وبنات وِردان^١ ، ولعلم أن بين العالم والكاتب فرقاً . »

ويغلب القصص على إنشاء أبي عامر ، فتجده في مختلف رسائله وفصوله محدثاً يسوق الخبر والنادرة ، ويحسن السرد والأداء ، ويعني بالتحليلات النفسية ، وتصوير الأخلاق والأشكال ، كما في كلامه على الفَرَضِي والإفيلي ، وسهل ابن هارون والجاحظ ، وعلى المعلمين ، وأوصافه دقيقة بارعة ، سواء تناول بها المعاني الذهنية ، أو الأجسام الحية والجمادة ، كوصفه للنفس الروحانية في ذمه المعلمين ، مستنداً إلى علم الفراسة في ذكر أشكال الذين فسدت روحانيتهم ؛ وكوصفه لدار الفَرَضِي ، ورهطه ، ومواعينه وعقايره ؛ أو وصفه للخلواء وصاحبها المنهوم ؛ وهذه الرسالة مثبتة في التوابيع والزوايع ، وهي تشبه المقامة في مساقها .

وأظهر خصائصه في الوصف أن يتبع الموصوف بتصوير ميزاته في الأعضاء والألوان ، والصوت والحركة والطباع ، حتى يجعله مُحَسَّساً بارز الشخصية ، لا شبحاً غامضاً ، كما وصف الماء متأثراً بيديع الزمان ، والبرد والنار والخطب والخلواء . ويبدو في أوصافه الوضع رفيعاً ، والقبيح جميلاً ، وإنما هما رفعة

١ بنات وِردان ، وأحدثها بنت وِردان : دويبة نحو الخنفساء ذات ألوان مختلفة أكثر ما تكون في الحمامات والكثف .

الفن وجماله أضفاهما على موصوفاته الحفيرة الدميمة ، فاكسبت بهما رؤاء ، وعلت قدراً ومقاماً ، كوصفه الثعلب والبرغوث ، وهما في التوابع والزوابع ، أو وصفه للبعوضة إذ يقول :

« البعوضة مليكة » ، لا جيش لها سواها ، تحقرها عين من براها ، تمشي إلى الملك بسدبها . وتضرب في بُجوحة داره بطلها . تؤذيه بإقبالها ، وتعرفه بإراقة دمه ما لها . فتُعْجِز كفه ، وترغم أنفه ، وتضرج خدّه ، وتُفْري لحمه وجلده . زجرتها تسليمها ، ورمحها خرطومها ، تذلل صعبك إن كنت ذا قوة وعزم ، وتسفك دمك ، وإن كنت ذا حِلْف وعسكر ضخم . تنقُص العزائم وهي منقوضة ، وتُعْجز القوي وهي بعوضة ، ليرينا الله عجائب قدرته ، وضعفنا عن أضعف خليفته . »

وإنشاؤه رائق الديباجة واضحا ، لا تكدر الصنعة صفاءه لقوة طبعه ، وتجافيه عن الإفراط فيها ، مع أنه يلتزم السجع أحيانا ، ويؤثر المجاز على الحقيقة ، فتكثر عنده الاستعارات والتشاييه والكنايات . وجملته رشيقة العبارة ، محكمة التركيب ، فيها جزالة وإيجاز ، على غير خشونة وإخلال ، يُمِدُّها بآيات القرآن ، وأقوال العرب وأمثالهم ، ويستعين عليها بمأثورات أخبارهم وأحاديثهم ، فتستكين إليه الرواسم الجاهزة ، والعناصر المستعارة . ولذلك قال الكاتب أبو بكر أشكمياط حين وقع على فصول له : « فِقَرٌ حِسان إلاّ أنّه عثر عليها . »

بيد أنه يحسن صهرها وتنزيلها ، فلا تُلفى غريبة مُهْجَنَة ، ولا نافرة مُفْلَقَة ، ولا مُجَرَّرة مُتَعَبَة ، فهو من النفر الذين إذا كتبوا ارتاحت إليهم مدكة البلاغة ، وتشققت لهم أكام البيان .

الناقد

مرّ بنا في كلام ابن حيّان أن أبا عامر ما أدرك غير الوسط في ثقافته الأدبية ، لقلّة صبره على طلب العلم ، وعدم عنايته باقتناء الكتب ، فهو من أولئك الفتيان الذين وصفهم بقوله : « ولكن البطالة على الفتيان غالبية ، والسّامة عليهم مستولية . » ويخبرنا في صدر التّوابع والزّوابع أنّه كان في أيّام كتاب الحجاء ، يحنّ إلى الأدباء ، فاتبع الدّواوين ، وجلس إلى الأساتيد ، فحصل العلم بقليل من النظر ، ويسير من المطالعة . على أنّه لم يذكر أحداً من هؤلاء الأساتذة ، ولا اعتدّ بشيخ مشهور أخذ عنه ؛ فاستهدف بذلك إلى تعيير الخصوم ، والشك في علمه ومعلميه . وكأنّه يردّد كلامهم بلسان الجني صاحب الإفليلي حين يقول فيه : « فتى لم أعرف على من قرأ . » ونعلم مصير الكتب عنده ، بعد مطالعته لها ، من ذاك الحوار الذي جرى بينه وبين الجني ، قال : « فطاريحني كتاب الحليل . قلت : هو عندي في زنبيل . قال : فناطري في كتاب سيبويه . قلت : خربت الهرة عليه ، وعلى شرح ابن درّستويه . »

ويبيّن أن أبا عامر ما أراد سوى المفاخرة بقراءة هذه الكتب ، واستغنائها عنها ، وإن يكن في كلامه ما يؤيد قول ابن حيّان من أنّه قليل الاعتناء باقتنائها ، قليل الرغبة في الطلب . فقد كان صاحبنا يعتمد على غرب ذاكرته ، وتوقّد ذهنه ، وذكاء قلبه ، فاكتفى بيسير المطالعة ، وقليل النظر ، واقتصر على صدره خزانة لكتبه ، فتأتّى له قسط صالح من الأدب ، إن فاتته الرسوخ فيه ، على حد قول ابن حيّان ، لم يفته الاطلاع على الشعر القديم والحديث وعلى كتب التاريخ ، ولا قصّرت به المشاركة في علوم اللغة وآداب القرآن والحديث ، ولا ندّ عنه حسن المذاق ورهف الحسّ ، فصحّ له أن يتصدّر للنقد ، وقد تهيّأت

له عدته المعروفة ، مدافعاً عن نفسه ، مقاوماً خصومه ونُقَّاده ، مُدلياً بآرائه في الشعر والنثر . في الألفاظ والمعاني ، في الفن والجمال . فعدا على المعلمين والنُّحاة ، وهم في نظره حَسَّادُ الأدباء ، لا يحسنون الكتابة والشعر ، لضعف روحانيتهم ، وسوء فهمهم ، وغلاظة أكبادهم : « سقطت إليهم كتب في البديع والنقد ، فهموا منها ما يفهمه القرد اليماني من الرقص على الإيقاع ، والزمر على الألحان ، فهم يصرفون غرائبها . فيما يجري عندهم ، تصريح من لم يُرزَق آلة الفهم . » ومن دلائل تقصيرهم : « أنهم لا يقدمون أن يجعلوا ما يحملون من المعرفة تصنيفاً ، ولا تغزّر مادتهم أن ينشئوها تأليفاً . » فهم ينشئون بين تلاميذهم : « ولا تُروى لهم نادرة ، ولا تؤثر عنهم في البلاد شاردة . »

ومن سخره بالنُّحاة أنه جعل في التواضع والزواجع تابعةً لأحد الشيوخ لإوزة ، والإوزة يُضرب به المثل في الحق والسخافة ، وجعلها تجادله فتقول : « ما الذي تحسن ؟ قلت : ارتجال شعر ، واقتضاب خطبة . قالت : ليس عن هذا أسألك . قلت : ولا بغير هذا أجابك . قالت : حكم الجواب أن يقع على أصل السؤال ، وأنا إنما أردت إحسان النحر والغريب اللذين هما أصل الكلام ، ومادة البيان . » ثم يسألها : « فهل تعرفين في الخلاق أحق من إوزة ؟ » قالت : « لا . » قال : « فتطلبِي عقل التجربة ، إذ لا سبيل لك إلى عقل الطبيعة ، فإذا أحرزت منه نصيباً ، وبؤت منه بحظ ، فحينئذ ناظري في الأدب . »

ولم تكن قسوته على النُّحاة والمعلمين دون تعنته سائر الأدباء في عصره . فإنه سخط عليهم لما لقي من أذى خصومتهم وحسدٍهم ، وكان كغيره من الكتّاب والشعراء الذين يصعب عليهم أن ينسبوا الإحسان إلى أقرانهم وأترابهم ، ولا سيما الجليل الناشئ على أثرهم ، يملكهم الغرور ، فيتوهمون أنهم انفردوا بالإجادة والنبوغ ، ولم يبقَ بعدهم مجال لمبدع أو مجيد . وفي كتاب له إلى المؤتمن يصوّر

هذه الجماعة التي لم يكن بريئاً منها ، أجمل تصوير ، معتدّاً بأدبه وإبداعه ، متذمراً على دهره الذي أوجده بين قوم ضاع أدبه فيهم فلم يفهموه : « لا تقوم عندنا حظهم من الفهم الحفظ ، ومن العلم الذكر ، وهذا حظّ القصّاص ، وأعلى منازل التّوّاح . فترى المُمخِرِقَ منهم ، إذا قرئ عليه الشعر ، يزوي أنفه ، ويكسر طرفه ؛ وإذا عُرضت عليه الخطبة ، يُميل شِقّه ، ويلوي شِدْقَه . فإن تناولهما لم يُبقِ ملحّة إلا حشدها ، ولا أبقى عِفْصَة فجّة إلا جلبها . وأصل قلّة هذا الشان ، وعدم البيان ، فسادُ الأزمنة ، ونبوّ الأمكنة ، وأنّ الفتنة نسخٌ للأشياء ، من العلوم والأهواء ؛ ترى الفسّيم فيها باثر السلعة ، خاسر الصّفقة ، يُلَمَحُ بأعين الشّنان ، ويُسْتَمْتَلُ بكل مكان . هذا دأبنا وحربنا . إنّنا طلبنا البيان ، فأدركناه بكل لسان ، والتمسنا الإبداع ، فأثبتنا كل معجيب ، وأتيننا على كل مطرب ، فما سقطنا على سُوقَةٍ يهشّ إلينا ، ولا دَقَعْنَا إلى ملك يصوبنا ، وليت ، إذ لم يكن غُثم ، ألاّ يكون غُرم ! وودِدْنَا أنّا بَرَازخُ لا حربٌ ولا سلم ، ولا يَقْظَة ولا حُلُم ؛ كفى بذلك إنحاء على الزمن ! »

ومن ذلك ما جاء في رسالة التّوابع والزّوابع ، إذ يقول له صاحب الجاحظ : « إنّك خطيب ، وحائك للكلام مجيد ، لولا أنّك مغرّى بالسّجع ، فكلامك نظم لا نثر . » فيجيبه : « ليس هذا ، أعزّك الله ، مني جهلاً بأمر السّجع ، وما في المماثلة والمقابلة من فضل ، ولكني عدمت ببلدي فرسان الكلام ، ودُهيت بغياوة أهل الزّمان ، وبالحرّ أن أحرّكهم بالازدواج . » فيقول له الجني : « فكيف كلامهم بينهم ؟ » فيقول : « ليس لسيبويه فيه عمل ، ولا للفراهيدي إليه طريق ، ولا للبيان عليه سِمة ، إنّما هي لُكنة أعجميّة ، يؤدّون بها المعاني

١ البرازخ ، جمع برزخ : وهو الحاجز بين الشيئين .

تأدية المجوس والتَّبَط . « فيصبح تابع الجاحظ : « إِنَّا لله ! ذهب العرب
وكلامها ! ارمهم ، يا هذا ، بسجع الكُهَّان ، فعسى أن ينفعك عندهم ،
ويُطِير لك ذكراً فيهم ! »

وخصر^١ أبا القاسم الإفليلي بنقد موجه تعمّد فيه إظهار أوصافه على ألسنة
الصبيان ليخرجه من حلقة الأدباء :

« وهو أبخل أهل الأرض لا محالة . ولم يقصّر بنا عنده إلا توقيرنا لشغامتة^٢ ،
وهو يرى أن بعض صبياننا قد أفلقوه حين قالوا : « ليست مِشْبَتِه مِشْبَتِه أدب ،
ولا وجهه وجه أريب ، ولا جليسته جليسة عالم ، ولا أنفه أنف كاتب ، ولا
نغمته نغمة شاعر . »

وفي استناده إلى الأوصاف يتكلّم على تأثير النفس في الإنشاء ؛ فمن كانت
نفسه مستولية على جسمه ، كان مطبوعاً روحانياً يُطلع صور المعاني في أجمل
هيئاتها ؛ ومن كان جسمه مستولياً على نفسه من أصل تركيبه ، كان ما يُطلع
من الصور ناقصاً عن الدرجة الأولى في التمام والكمال .

ولتركيب الأعضاء ، كما يقتضي علم الفِراسة ، تأثير في صلاح الآلة
الروحانية وفسادها ؛ ففساد الآلات الظاهرة في الجسم يعين على فساد الآلة القابلة
الروحانية ، والخادِمة لآلات الفهم : منها فَرطحة الرأس وتسفيطه ، ونبوء
القَمَحْدُوَّة ، والنواء الشّدق ، وخزَر العين ، وغِلَظ الأنف ، وانزواء
الأرنبة .

وغير خفيٍّ ما في هذه الأحكام من غموض ومجازفة لا يصحّ الركون إليهما ،
إلاّ أنها خطوة محمودة خطاها ابن شهيد في النقد الأدبي ، مؤلفاً في طريقه بين

١ النغامة : نبتة بيضاء يكنى بها عن الشيب .

لإنشاء الكاتب وحالات نفسه ، وصور أعضائه . « فإصابة البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب ، واستيفاء مسائل النحو ، بل بالطبع ، مع وزنه من هذين ، ومقدار طبع الإنسان إنمّا يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه . » فمن كان طبعه روحانيّاً استولت نفسه على بدنه ، وجاء : « بصور راققة من الكلام تملأ القلوب ، وتشغف النفوس ، فإذا فتشت لحسنها أصلاً لم تجده ، ولجمال تركيبها أسّاً لم تعرفه ، وهذا هو الغريب أن يتركب الحُسن من غير حُسن كقول امرئ القيس :

ألا عِمّ صباحاً أيها الطلل البالي

وقوله :

تنوّرتُها من أذريعاتٍ ، وأهلُها يترّب ، أدنى دارِها نظراً عالٍ

فإنّ هذه الديباجة إذا تطلّبت لها أصلاً من غريب معنى لم تجده . »

فأبو عامر يلمس هنا نظرية الشعر الصافي ، بما فيه من توقيع وتركيب وجمال غير محدود ، ويعزوه إلى صفاء النفس واستيلائها على الجثمان ، مع الاحتفاظ بميزاتيّ معرفة الغريب ، واستيفاء مسائل النحو . على أن هذا لا يعني أنّه يريد تطهير الشعر الصافي من المعنى والعاطفة والصورة كالأب بريمن وأصحابه دعاة هذا المذهب الحديث ؛ فقد كان ، على إجلاله لروعة الديباجة ، يجدها بعض الأحيان خداعة للناقد ، فيوصيه أن يحترس منها في حكمه على الشاعر . ولا ينساق بظواهرها ، فليس الشعر باللفظ وحده ، وإنمّا يستحق الصناعة من يتحقّم بحور البيان ، ويتعمد كرائم المعاني والكلام ، وينطق بالفصل ، ويركب متون الجِدِّ . ويطلب الأشياء النادرة والسائرة ، وينظّم من الحكمة ما يبقى بعد موته . متصرفاً

تصرف الملح في الطعام ، متلوثاً في الأغراض والصور ، تلوثاً أبي براقش^١ .
ويرى أن للحروف أنساباً وقربات تبدو في الكلمات ، فإذا جاور النسبُ
النسب ، ومازج القريبُ القريب ، طابت الألفة ، وحسنت الصُّحبة . وإذا
رُكبت صور الكلام ، حسنت المناظر ، وطابت المخاير . وللعذوبة إذا طُلِبَت ،
والفصاحة إذا التُمِسَت ، قوانين من الكلام ، من طلب بها أدرك ، ومن نكَبَ
عنها قصّر . وكما تختار مليح اللفظ ورشيق الكلام ، فكذلك يجب أن تختار مليح
النحو ، وفصيح الغريب ، وتهرب من قبيحه .

وأهل صناعة الكلام ثلاث طبقات متباينون في المتزلة ، متفاضلون في شرف
المرتبة ، على مقدار إحسانهم وتصرفهم . فمنهم الذي ينظم الأوصاف ويخترع
المعاني ، ويمرّز جيّد التأليف ، إلا أنه يجري في الأبيات القليلة والمآخذ القرينة ،
فإذا كثرت عليه وازدحمت ، وقف وانقل ، وتلاشى واضمححل . ومنهم الكارع
في بحر الغزارة ، يمرّ مرّ السيل في اندفاعه ، لا يشكو الفشل ، ولا يَسْكَلُ على
طول العمل ، فذلك الألسنُ يوم حرب الكلام ، لا تخطيء ضربته ، ولا تصاب
غيرته . ومنهم من يتجافى عن الكلام ، وبروغ عن المقال ، فإذا مُنِّي به أخذ
بأطراف المحاسن ، وشارك في أنحاء من الصنعة ، وجُلُّ ما عنده تلفيقٌ وحيلة ،
وبذلك يصاحب الأيَّام ، ويجاري أبناء الزمان . ومن خرج عن هذه الطبقات
الثلاث لم يستحق اسم البيان ، ولا يدخل في أهل صناعة الكلام .

وبحث في الأساليب واختلافها باختلاف العصور والأمم فقال : « وكما أن
لكل مقام مقالاً » ، فكذلك لكل عصر بيان ، ولكل دهر كلام ، ولكل طائفة

١ أبو براقش : طائر صغير بري كالقنفذ ، أعلى ريشه أغبر ، وأوسطه أحمر ، وأسفله أسود ،
فإذا انتفش تغير لونه ألواناً شتى .

من الأمم المتعاقبة نوع من الخطابة ، وضرب من البلاغة لا يوافقها غيره ، ولا تهشُّ لسواه . وكما أنَّ للدنيا دولاً ، فكذلك للكلام ثَقَلٌ وتغايُرٌ في العادة . « ولذلك أنكر على معاصريه تصديرهم قصائد المدح بذكر عرائس الشعر جرياً على الأسلوب القديم ، وأوصى أهل الصناعة ، إذا اعتمدوا وصف حالة ، أن يستوفوا جميعها ، ولا يخرجوا عنها ، فذلك أبهى لكلامهم ، وأدلّ على أن الكلام لهم ومن تأليفهم . وعاب على عبد الحميد تأثره بلغة الأعراب ، وروح البداوة ، فخطب صاحبه الجني في رسالة التوابع والزوابع بقوله : « إني لأرى من دم اليربوع بكفّيك ، وألمحُ كُشَى الضبِّ على ماضِغِيكَ ! »

ولم يغفل عن السرقات الأدبية ، ومن حقّه أن لا ينساها ، وهو من المتهمين بها ، فأجازها للشعراء ، على شرطٍ وضعه ، وقانونٍ رسمه ، قال في رسالة الجن : « إذا اعتمدت معنى قد سبقك إليه غيرك ، فأحسنَ تركيبه ، وأرقّ حاشيته ، فاضربْ عنه جملة ، وإن لم يكن بدّ ففي غير العروض التي تقدّم إليها ذلك المحسن ، لتنشط طبيعتك ، وتقوى مُنتك . » وأدرك على عمر بن أبي ربيعة ترسمه بيت امرئ القيس :

سموتُ إليها بعدما نام أهلها ، سموّ حَبَابِ الماء حالاً على حالٍ

فقال : « ألا ترى عمر بن أبي ربيعة ، وهو من أطبع الناس ، حين رام الدنو منه والإلام به ، كيف افترض في قوله :

ونفضتُ عني النومَ ، أقبلتُ مِشْيَةَ الـ حُبَابِ ، وركني ، خَشْيَةَ القوم ، أزورُ

ولو ركب غير عروضه تخلص . »

ويستشهد على صحة زعمه بقول إسماعيل بن يسار النَّسائي :

أقبلتُ، والوَطء خفيف ، كما ينساب من مَكَمِنِهِ الأَرْقَمُ

وأنّه عندما حاول النظر إليه ، خالفه في العَروض ، فابتعد عنه ، ولم يفتضح
مثل ابن أبي ربيعة ، قال :

أَدِيبٌ إِلَيْهِ دَبِيبُ الْكَرَى ، وَأَسْمُو إِلَيْهِ سَمُو النَّفَسِ

ولسنا على رأي أبي عامر في هذه القضية ، فالسرقات الشعرية لا يخفيها
اختلاف العَروض ، ولا يشفع شيء لمستحلتها ، إلاّ إذا ولد منها صوراً أو
معاني جديدة يحق له أن يدعيها كما قال أبو نواس :

دَعْ عَنْكَ لُومِي ، فَإِنَّ اللُّومَ إِغْرَاءٌ ، وَدَاوَنِي بِأَلَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ
وهو مأخوذ من قول الأعشى :

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ ، وَأُخْرَى نَدَاوَيْتَ مِنْهَا بَهَا

فزاد عليه المثل المولّد في صدر البيت ، وجعل مداواة الداء بالداء مطلقة
لا مقيّدة ، فنُسب المعنى إليه ، واشتهر بيته على أفواه المنشدين ، وخمل بيت
أبي بصير . ونرى أن عمر أقرب في صورته الشعرية إلى معاصره إسماعيل بن
يسار منه إلى امرئ القيس ، وإن شابه الشاعر الكندي بالعروض ، ولطف
الوصول إلى الحاجة ، كما أن أبا عامر يجاور في صورته الشاعر الجاهلي أكثر
من مجاورته إسماعيل بن يسار .

ولا يخلو نقده من سخر لطيف ، أو تهكم لاذع ، شأنه في بيت أبي نواس :

سَأَشْكُو إِلَى الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ هَوَاكِ ، لَعَلَّ الْفَضْلَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا

قال : « فهذا من الكلام الغث ، واللفظ الرث ، الذي لو رامه حمار الكُسَّاح^١ لأدركه . »

ونظم في رسالة التوابع والزوابع أبياتاً في الغزل على لسان بغل ، وأخرى مثلها على لسان حمار ؛ فلعمراً عُرِضَتْ عليه للمفاضلة بين الشاعرين ، وسمع قول الحمار :

وما نلتُ منها نائلاً ، غير أني ، إذا هي رائت ، رُئْتُ حيث تروثُ

قال : « والله إن للروث رائحة كريهة ، وقد كان أنف الناقة أجدر أن يحكم في الشعر . » وأنف الناقة هو تابع أبي القاسم الإفليلي .

فأبو عامر من خيرة النُقَّاد في العصر القديم ، وله نظرات جريئة يُحمد عليها ، وإلَّمْ تسلّم من الغمز والتجريح ، وفيها ما يوافق المذاهب الحديثة في زماننا كبَحْثِهِ في تأثير الألفاظ ، والجمال الذي لا يوصف ؛ وسيمرّ بنا شيء غير قليل من نقده وسخره في رسالة التوابع والزوابع .

١ الكساح : داء للإبل ، أو هو الكساحة أي تعطل القوى في اليدين والرجلين ، وأكثر ما يستعمل في الرجلين .

رسالة التوابع والزوابع

نسختها

لم يُعثر إلى الآن على مخطوطة لرسالة التوابع والزوابع ، وإنّما بلغ إلينا منها ما أثبتّه أبو الحسن عليّ بن بسّام الشتريني الأندلسي في القسم الأول من كتابه « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » ، فرأينا أن نقسمه ، بحسب أغراضه ، إلى مدخل وأربعة فصول ، وجعلنا عنوان الفصل الأول : توابع الشعراء ، والثاني : توابع الكتاب ، والثالث : نُقّاد الجُن ، والرابع : حيوان الجُن . وهي عناوين تقبل الزيادة بعد العثور على نسخة كاملة لهذه الرسالة الحسنة .

والقسم الأول من كتاب الذخيرة طُبِع في مجلدين بالقاهرة ، أولهما سنة ١٩٣٩ ، وتولّت نشره كلبّة الآداب في جامعة فؤاد الأوّل ، وفيه فصول التوابع والزوابع ، فاعتمدنا عليه في إخراجها كتاباً على حدة .

ويخبرنا الدكتور طه حسين في مقدمة الكتاب أن الجامعة كلفت المستشرق لاوي بروفنسال مع طائفة من شباب قسم اللغة العربية في كلبّة الآداب أن يهيئوا نصّ كتاب الذخيرة للطبع ، معارضين ما اجتمع لهم من النسخ ، مصحّحين ما لا بدّ من تصحيحه . ثمّ ألّفت لجنة من أساتذة الكلبّة : طه حسين ، أحمد أمين ، مصطفى عبد الرّازق ، عبد الحميد العبادي ، عبد الوهّاب عزام ، لاوي بروفنسال ، للنظر في ما أعدّت اللجنة الأولى من النصّ تقرأه منفردة ومجمّعة .

حتى إذا أقرته ، أذنت بطبعه ، وعلى هذا النحو أُخرج القسم الأول من الذخيرة ، مصححاً ومحركاً ومطبوعاً طبعاً جميلاً .

على أننا ، عندما حملنا النفس على نشر رسالة التواضع والزواضع ، وجدنا أن اللجنة لم تُعَنِّ بِشرح الألفاظ الغريبة والاصطلاحات الأندلسية ، بل أرجأت ذلك إلى أن تنتهي من نشر بقية الأقسام . فتولّينا شرح الغريب من اللفظ ، وفتح المغلق من المعنى ، وتعريف أسماء الأعلام ، وإيضاح التلميحات التاريخية ، تسهيلاً على عامة القراء ، وتخفيفاً عن خاصتهم . ووقعنا على خطأ غير قليل في الشكل ، يحسن بنا أن نردّ معظمه على الطابع ، فأصلحناه وقومنا مُنَادِهِ ، دفعاً للالتباس والتشويه .

ولم يقف عملنا عند هذا الحد في إخراج هذه الرسالة ، فإن الجهد الذي بذلته اللجنة في معارضة نسخ الذخيرة ، وتصحيح النصّ ، لم يبلغ إلى ما أرادته من رد الكتاب إلى الصواب ، كما يقول الدكتور طه حسين في المقدمة . وهذا ما تبيّنناه في أثناء دراستنا لآثار ابن شهيد ، إذ عرضت لنا ألفاظ مغلوطة فيها أو محرّقة ، عجبنا كيف جاوزتها اللجنة دون أن تدقق في معانيها ، أو تراجعها في مظانها ، ورأينا أن نستدرك ما فاتها . فمما صحّحناه بتبع المعنى ، وتقريب صور الألفاظ بعضها إلى بعض ، قول أبي عامر في وصف الصيد :

نُـمَسِّحُ بِالْحَوْدَانِ مِنْهُ أَكْفَتَنَا ، إِذَا مَا اقْتَنَصْنَا مِنْهُ غَيْرَ قَلِيلٍ

والحَوْدَانِ لا معنى له ، وإنما أراد الحَوْدَانِ ، وهو نبت نوره أصفر ، وقد وُصِفَ ، قبل هذا البيت ، أبكار التّور ، وشبّهها برداء عروس . وهنا يذكر تمسيح الأيدي بها من لحم الطرائد . ومثل ذلك قوله : « فضرِبَ زهير الأدهم بالسوط ، فسار بنا في قنّته . » ولا وجه للقنّت يُردُّ إليه الكلام ، فضلاً

عن إشكال استعماله بمعنى القنوت ، وصوابه القنن ، أي ستن الطريق ونهجه .
ومما صحّحناه بالرجوع إلى كتب الأدب ودواوين الشعراء ، قول طرفة :

لسعدى بحِزَانِ الشَّدِيفِ طولُ

والشديف لا ذكر له بين أسماء المواضع ، وهو في ديوان طرفة الشّريف
بالراء المهملة والتصغير ؛ ذكر صاحب القاموس أنّه أعلى جبل ببلاد العرب ،
وأنّه قد صعدّه ؛ وذكره ياقوت في معجم البلدان ، وقال إنّهُ يُطلق أيضاً على
ماء لبني ثُمير بنجد أو وادٍ بنجد ، وعلى حصن من حصون زبيد باليمن .

ومنه قول أبي نواس :

لمن دِمنٌ تزداد طيبَ نسيمٍ ، على طيبٍ ما أقوتُ ، وحسنَ رسومِ

ووجه الكلام : « على طول ما أقوت » وهكذا رواية الديوان .

وقال أبو عامر بن شهيد :

أصْفِيحُ شِيمَ ، أم برقٌ بدا ، أم سنا المحبوب أوريّ أزنُدا ؟

وصوابه ، كما في مطمح الأنفس ، أصباحُ شيمَ .

وكذلك قوله في القصيدة نفسها :

قلتُ : هَبْ لي ، يا حبيبي ، قِبلَةً ، تشفٍ من غمّك تبريحَ الصّدى

ولا معنى لغمّك هنا ، وإنّما هي عمّك ، كما في مطمح الأنفس .

وجاء في رسالة الخلواء : « فأمرت الخلواني بابتياح أرطال منها . » ورواية

يتيمة الدهر : « فأمرت الغلام . » وهي الصواب .

ومرت بنا ألفاظ يستقيم بها المعنى على اختلاف روايتها ، مثل قوله : « أعذبُ من ألسنة الأحبة . » فأثرنا رواية يتيمة الدهر ، وهي : « أعذب من ريق الأحبة . » وألفاظ أخذناها على وجه التقريب ، ولم ينشرح لها صدرنا ، كما في قوله : « وتحركتُ لهم حركة مشولم . » وهو ، كما يظهر ، من اصطلاح أهل المغرب ، وليس له ذكر في المعجمات إلاّ معجم دوزي ، فإنه أثبت لفظة مشولين ، وقال إن معناها فتيان ، وإن واحدها مشولٌ ، كتقعد ، على خلاف القياس . فلعلّ في مشولم تحريفاً ، والمراد مشولين ، لأن المعنى يرتاح إليها بعض الشيء . أو لعلّها مشولم ، إشارة إلى الرقية التي خدع الغني بها اللصوص الذين جاؤوا بيته ليلاً ، وقصتهم في باب برزويه من كيلة ودمنة .

وكذلك لفظة شواير ، في قوله يصف الحلواء : « مُجاجة الزناير ، أجريت على شواير . » فإن كتب اللغة لم تذكرها ، وهي حضرية مولدة ، وإنما ذكرها دوزي في معجمه ، وأورد لها معنى لا يطابقها في هذا الموضع ، فشرحناها بالاستناد إلى بعض تعريفه لها ، ثم إلى ما نعلمه عنها من اصطلاح العامة عندنا ، فقلنا : هي قِطع لها شكل الزاوية ، كما يرى في تقطيع الحلواء .

فالجهد المحمود التي بذلتها لجنة كلية الآداب في مصر لتصحيح نص الذخيرة ، لم تصرف عنا مشقة البحث والتنقيب ، والشرح والتخريج ، لنشر رسالة التوايع والزوايع مصححة منقحة ، مذكلة العقاب ، قرية التناول .

تاريخها

ليس في أخبار ابن شهيد ذكر للسنة التي وضع فيها رسالة التوابع والزوابع ؛ غير أن المستشرق بروكلمن يزعم أنها صُنفت قبل رسالة الغفران بعشرين سنة . ومعلوم أن أبا العلاء ألّف رسالته الإلهية في أثناء عزله سنة ٤٢٤ هـ (١٠٣٢ م) فيكون أبو عامر قد أنشأ التوابع والزوابع سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) على رأي العالم الألماني .

فأمّا أن تكون رسالة ابن شهيد كُتبت قبل رسالة المعري فهذا لا إشكال فيه ، لأن أبا عامر توفي سنة ٤٢٦ هـ أي بعد ظهور رسالة الغفران بنحو سنتين ؛ وكان قد اعتلّ قبلها بضع سنوات ، وغلب عليه الفالج في مستهل ذي القعدة من سنة ٤٢٥ مدة سبعة أشهر إلى أن مات في آخر جمادى الأولى من السنة التالية . ومع أنّه لم يعطلّ لسانه ، فينقطع عن قول الشعر ، إلّا أن ما كان يتنابه من الأوجاع العظيمة ، وضغط الأنفاس ، وعدم الصبر ، خليق بأن يمنعه عن القيام بعمل أدبي طويل النفس كرسالة التوابع والزوابع . ولكن الإشكال في تأريخ السنة التي أنشئت فيها ، والمستشرق بروكلمن لم يدلنا على أي شيء اعتمد في قوله إنها وُضعت قبل رسالة الغفران بعشرين سنة . فرأينا أن نتقرّى هذا البحث في فصولها التي بين أيدينا ، لعلنا نصل إلى نتيجة مرضية ولو قليلاً .

فأول ما يبدو لنا في مدخلها تبجح أبي عامر في خطابه لأبي بكر بن حزم ، لأنّه «أوتي الحكم صبيّاً ، وهزّ يجذع نخلة الكلام ، فاسأطَ عليه رطباً جنيّاً .» فنعلم أن صاحبنا كان فتى عندما توفّر على تصنيف رسالته . ونجد هذه الإشارة إلى شبابه في قول تابع المتنبي عندما سمع شعره : «إن امتدّ به طلق العُمُر ، فلا بدّ أن ينثث بدُرر ، وما أراه إلا سيُحتَصّر ، بين قريحة

كالحمر ، وهمةٍ تَضَعُ أخمَصَه على مَقَرِّ البدر . » ثم في حديثه مع بغلة أبي عيسى : « فقالت : ما أبقت الأيَّام منك ؟ قلت : كما ترين . قالت : شبَّ عمرو عن الطوق ! »

فهذه الإشارات إلى صباه أو إلى شبابه أو إلى مجاوزته سن الحداثة ، لا تأذن لنا بأن نجعل رسالة التوابع والزوابع وليدة أواخر حياته ، لأنها من دلائل فتوته ؛ فلعينا أن نسأل فصول الكتاب عن السنة التي وُلدت فيها ، فقد تكون أهدى لنا من كلام المؤرخين .

ومن حسن الحظ أن أبا عامر ضمَّن رسالته هذه نُتْقاً من أخباره وشؤونه ، وأورد فيها طائفة من أشعاره ، وذكر أشخاصاً ، منهم قضوا نحبهم قبل تأليفها ، ومنهم كانوا أحياء ، على أنه لم يورد خبراً يتصل بكهولته ، ولا شعراً قاله في مرضه أو بعد فتور شبابه . فمن أخباره ما يتعلق بحداثته وطلبه العلم : « فاتَّبعْتُ الدواوين ، وجلست إلى الأساتيد ، فنبض لي عرق الفهم ، ودرّ لي شريان العلم بمواد روحانية . » ومنها ما يتناول خصومه الذين اتهموا شعره وطلعوا عليه عند المستعين ؛ وكانت خلافته من سنة ٤٠٣ هـ إلى سنة ٤٠٧ هـ .

بيد أن الرسالة كُتِبَتْ بعد هذا العهد ، كما تدلُّ الأشعار المدونة فيها ، على اختلاف أغراضها . فقصيدته التي قالها ، وهو في سجن العلويين ، يصح أن تكون في خلافة عليّ بن حمّود (٤٠٧ - ٤٠٨) ، وهذا ما نرجحه ، لما عُرِف به من الشدة والتنكيل والمصادرة ، واعتقال الذين كانوا في خدمة المستعين . أو في خلافة أخيه القاسم التي امتدَّت إلى أن جاء يحيى بن عليّ ينازع عمه المُلْك سنة ٤١٢ هـ . فاستولى على قرطبة ، وتلقب بالمعتلي ؛ واتصل به أبو عامر . غير أن القاسم عاد إلى قرطبة وملكها سنة ٤١٣ هـ . وهرب يحيى إلى مالقة ، فربما سَجَن ابن شُهيد في تلك السنة لحظوته عنده ، وكثرة مدائحِه فيه . وإذا لم يصحَّ ذلك ،

وصحّ سجنه في زمن عليّ ، فبعض مدحه ليحيى مرويّ في التوايع والزوايع ممّا يدلّ على أنّها وُضعت بعد سنة ٤١٢ . وفيها أيضاً رثاؤه لأبي عبيدة حسان بن مالك ، وهذا استوزره المستظهر عبد الرحمن الخامس سنة ٤١٤ هـ ، كما نخبرنا الفتح ابن خاقان في « مطمح الأنفس » ولكنه لم يذكر سنة وفاته . وكذلك قصيدته التي يمدح بها صديقه أبا محمد بن حزم ، ويطري تأويلاته الشافعيّة :

فسلّ من التأويل فيها مهتداً ، أخو شافعيّات ، كريمُ العناصرِ

وابن حزم كان يميل إلى المذهب الشافعي في عنوان شبابه ، فتعصّب له وناضل عنه ، حتى وُسم به ونُسب إليه . ولما سقطت الدولة العامريّة سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٩ م) هجر قريته ممّت ليشتم من أعمال لبّلة (Niebla) وشخص إلى المريّة (Almería) فراراً من الحرب الأهلية ، وعمره يومئذ نحو خمس عشرة سنة . ثم استقامت حاله في خلافة المستعين ، لمغالاته في التشيع لبني أمية ، حتى إذا قُتل المستعين ، اعتُقِل وحُبِس بضعة أشهر . وذهب بعدها إلى بلنسية ، فاتصل بالمرتضى عبد الرحمن الرابع الخليفة الأموي ، إلى أن قُتل سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٨ م) فقفّل إلى بلده . وفي سنة ٤١٤ هـ استوزره المستظهر عبد الرحمن الخامس مدّة خلافته القصيرة . فمدحُ ابن شهيد له بشافعيّاته ينبغي أن يكون خلال تلك السنوات ، لأن ابن حزم عدل عن المذهب الشافعي بعد ذياده العنيف عنه ، فرأه في شاطبة سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) يصنّف كتاب طوق الحمامة ، وكتاب الفِصل ، في الملل والأهواء والنحل ، ويتبع مذهب الظاهرية ، آخذاً برأي داود بن عليّ وأتباعه ، منحرفاً عن غيره من المذاهب .

فالعدد الذي اعتمده المستشرق بروكلمن بيّن الغلط ، لأن القصائد التي أشرنا إليها ، وذكرنا أنّها وردت في رسالة التوايع والزوايع ، لا تسمح لنا بأن نجعل

ولادتها سنة ٤٠٤ هـ ؛ فهي إنما أبصرت النور بعد سنة ٤١٤ هـ ، ولم تتقدّم رسالة الغفران بعشرين سنة ، بل ، على ما بدا لنا ، بتسع سنوات أو أقل ، فقد كتبها أبو عامر في قوة شبابه بعدما نيّف على الثلاثين .

هدفها

عرفنا أن أبا عامر كان كثير الخصوم والحساد ، ولقي منهم عتاً وأذيةً وضيماً لم يصبر له ، فأنبرى يواقعهم ويناضلهم ، ويتنقص أدبهم ، ويبسط آراءه في المنظوم والمنثور ، والفن والجمال . فرسالة التوابع والزوابع لا تعدو هذا الغرض الذي يرمي إليه ، وهو الطعن على أئداده ومنافسيه من الوزراء والأدباء ، وأهل السياسة والقلم ؛ ثم المنافحة عن أدبه بالرد على غمزات نُقّاده ؛ ثم إظهار محاسنه وفضائله في المتقدمين والمتأخرين .

فقد عرض لمقتابه عند المستعين ، مندداً بضعفهم وعجزهم عن لحاقه ؛ وألحّ بالإزراء على أبي القاسم الإفليلي ، فنفّس عليه بعلمه ومعرفته ، ودعاه إلى مهاراته بالوصف شعراً ونثراً . وسخر بأدبائه بلده ، ونسب الغباوة إلى أهل زمانه ، وعراهم من صحة اللغة ، وحسن البيان . وجعل الإوزة الحمقاء تابعة لشيخ من النُحاة ؛ وقال لبغلة أبي عيسى : « من إخوانك من بلغ الإمارة ، وانتهى إلى الوزارة . »

وما تجشّم الرحلة الأدبية إلى وادي عبقر إلاّ ليلقي توابع الشعراء والكتاب . وينال منهم لإجازة النظم والخطابة ؛ فأجازه امرؤ القيس ، وطرفة ، وقيس بن الخطيم ، وأبو تمام ، والبحثري ، وأبو نواس ، وأبو الطيّب ، وعبد الحميد ،

والجاحظ . وبديع الزمان ، وسواهم . وأسمعهم من أشعاره ورسائله ، وفاخرهم بإعراق بيته في الشعر ، وتقض أقوالهم في أدبه ، وإتما هي أقوال نُقّاده ، وعارضهم في قصائدهم وأوصافهم ، فقال أبو نواس : « هذا شيء لم نُلهمه نحن . » وقال أبو الطيّب : « إن امتدّ به طلق العُمُر ، فسوف ينث بدُرر . » وقال عبد الحميد والجاحظ : « اذهب فإنّك شاعر وخطيب . » وضرب صاحب بديع الزمان الأرض برجله ، عندما سمع منه وصف الماء ، فانفجرت له ، فغاب فيها عن العيان ، لما لحقه من الخزي والانكسار .

فكيفما سرنا في رسالة التوابع والزوابع نجد أبا عامر شديد الإنحاء على خصمائه ، شديد المباهاة بأدبه ونبوغه ، يناقش الشرق والغرب ، والقديم والمحدث ، ويدفع حملات النُقّاد والمتمتتين ، ولا يرضى أن يُجاز إلا شاعراً وخطيباً على السواء .

أقسامها

قسمنا رسالة التوابع والزوابع إلى مدخل وأربعة فصول ، ونشرع الآن في تعريف هذه الأقسام تسهيلاً لجمهرة القراء .

المدخل - زهير بن نمير

يتحدث أبو عامر في مدخل رسالته إلى أبي بكر بن حزم ، فيذكر له كيف تعلم ونبض له عرق الفهم ، بقليل من المطالعة ، ثم يتقل إلى خبر حبيب له مات ،

فأخذ في رثائه ، فأرتج عليه ، وإذا بجني اسمه زهير بن ثُمَيْر يتصور له . ويلقي إليه بتممة الشعر ، رغبة في اصطفااته ، كما تصطفي التوابع خلاصتها ، فتأكد بينهما الصحبة ، فأصبح ، كلما سُدَّت بوجهه مذاهب الكلام ، يدعو تابعه بأبيات لقينها عنه ، فيمثل له ، ويوحى إليه .

الفصل الأول - توابع الشعراء

يسأل أبو عامر صاحبه أن يُزيّره أرض التوابع والزوابع ، فيطير به على متن جواده ، حتى يتزل وادي الأرواح ، فيزور صاحب امرئ القيس ، وصاحب طرفة من الجاهليين ، ويرغب في التحول إلى العباسيين مبتدئاً بتابع أبي تمام ، فيلقى في طريقه شيطان قيس بن الخطيم من شعراء الجاهلية . ثم يصير إلى توابع الطائيين وشاعر الحمرة ، وينتهي به المطاف عند « خاتمة القوم » صاحب أبي الطيّب المتنبي . وفي زيارته هذه يساجل الشعراء ويعارضهم ويذاكرهم ، ويأخذ الإجازة منهم .

الفصل الثاني - توابع الكتاب

ويرغب أبو عامر في لقاء الكتاب ، ويدعوهم الخطباء ، ولولا شوقه إلى الشعراء ، لكانوا عنده أولى بالتقديم . فيسير إليهم مع زهير ، وقد اجتمعوا في بعض المروج للمذاكرة ، وفيهم تابع الجاحظ وتابع عبد الحميد . فيأخذان عليه شغفه بالسجع ، فيدافع عن نفسه ، فيجد من صاحب عبد الحميد عنفاً ، فيقابله

بالطعن على بدوّة أسلوبه ، فيتسم له ويياسطه . ثم يقرأ عليهما رسالة الخلواء ، فيضحكان منها ، ويستحسنانها . ويشكو إليهما أمر حسّاده ، عند المستعين ، وفيهم أبو القاسم الإفليلي ، فيتصدّى له تابعه بالنقد والتجريح ، فيردُّ عليه ، وينفسه بأوصافه ، وإذا بصاحب بديع الزمان يدخل بينهما ، فيعارضه أبو عامر في وصف الماء ، حتى ينجله . ثم يميزه صاحباً الجاحظ وعبد الحميد شاعراً وخطيباً .

الفصل الثالث – نقاد الجن

يحضر أبو عامر وتابعه مجلس أدب من مجالس الجن ، فيدور الكلام على بيت للناطقة تداول الشعراء معناه من بعده ، ولم يلحقوه ، وينشد بعض الجن أبياتاً في هذا المعنى ، يتسامى بها على الناطقة ، وإنّما هي من نظم أبي عامر . ثم يبحث الجنّي في الطريقة التي تحسن بها سرقة الشعر دون أن يفتضح صاحبها ؛ ويسأل أبا عامر أن يُسمعه كلاماً يرعى تِلّاع الفصاحة ككلام أبي الطيّب ، فينشده أمثلة من قصائده ، ويُدلّ بأشعار أجداده وأبيه وعمّة وأخيه .

الفصل الرابع – حيوان الجن

يسير أبو عامر وزهير في أرض التوايع والزوايع ، فيشرفان على نادٍ لحمير الجن وبغالهم ، وقد وقع الخلاف بينها في شعرين لحمار وبغل من عشاقها ،

فتدعوه للحكم فيهما ، ويعرف من بينهن بغلة أبي عيسى ، فيتحدث إليها ،
ويتذكران دار الإنس . ثم تعترضه إوزة في بركة ماء ، هي تابعة لبعض الشيوخ ،
تريد مناظرته في النحو والغريب ، فيردعها ، ويذكرها بسخفها وحمقها ،
ويتهيأ عندها ما بلغ إلينا من رسالة التوابع والزوابع .

هي ورسالة الغفران

أفضى بنا البحث في تاريخ رسالة التوابع والزوابع إلى الاستدلال على أنها
تقدّمت رسالة الغفران ببضع سنوات ؛ فغير مستنكر أن يكون أبو العلاء قد اطلع
عليها ، فنبّهت فيه فكرة الرحلة السماوية ، ثم جاءت رسالة ابن القارح تدعوه
إلى تصنيفها . ولا يدفع هذا الرأي بُعدُ الشقة بين قرطبة والمعرة ، وقلة انتشار
الأدب الأندلسي في الشرق ؛ فإن ابن شهيد لم يكن من المغمورين عند المشاركة ،
على تعصبهم لأدبهم ، واستخفافهم بأدب المغاربة . فقد روى أبو منصور الثعالبي
في يتيمة الدهر طائفة صالحة من كلامه . والثعالبي وُلد سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م)
أي قبل ولادة أبي عامر باثنتين وثلاثين سنة ؛ وتوفي سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م)
أي بعد ثلاث سنوات من وفاة أبي عامر ؛ فهو معاصر له ولأبي العلاء . وصنّف
كتابه يتيمة الدهر ، في صباه الأولى ، سنة ٣٨٤ هـ (٩٤٤ م) والعمر في إقباله ،
والشباب بمائه ، كما يقول في مقدمته . ثم أعاد النظر فيه ، فلم ترض نفسه عنه ،
فاستأنف العمل ، وما زال يبني وينقص ، ويزيد وينقص ، ويححو ويثبت ،
حتى أخرج نسخته الأخيرة من بين النسخ الكثيرة ، ولم يتم له هذا الأمر إلا بعدما
أدرك عصر السن والحكمة ، فتسنى له أن يلوّن من آثار ابن شهيد بعض مدائحه
في يحيى المعتلي سنة ٤١٢ هـ ، وشيئاً من رثائه لأبي عبيدة بن مالك وزير المستظهر

سنة ٤١٤ هـ ، وأوصافه للحلواء ، والبرغوث والثعلب ، وهي واردة في رسالة التوايح والزوايح . وإذا كان أبو عامر قد أنشأها قبل تصنيف رسالته هذه ، فإن وصفه للماء ، ورواه الثعالبي ، هو من صُلب التوايح والزوايح كما نرجح ، وضعه خصوصاً لينافس به صاحب بديع الزمان ؛ فتكون هذه الرسالة قد هاجرت إلى المشرق ، في حياة مؤلفها ، مع غيرها من آثاره ، وأخذ منها أبو منصور إلى يتييمته . فمن المعقول أن يقف عليها أبو العلاء المعري فيتأثر بها ، وهو ، على ما نعرفه ، مغرّى بالقراءة ، كليف بالدرس والاطّلاع .

ولكن لا نزعِم أنه انسحب على أذيالها في رسالة الغفران ، فإن الشبه الذي نجده بين الرسالتين لا يحرم أبا العلاء حق التأليف ، وكتلتاهما تسير في طريقٍ معبّدٍ لها ، وترمي إلى هدفٍ مخصوص بها . فإذا قصد الكاتبان عالم الأرواح في قصتيهما ، فطريق أبي عامر قاده إلى وادي الجن ، وطريق المعري قاده إلى الآخرة . وإذا توافقا في الطواف على الشعراء ، وعقد مجالس الأدب والمناظرة والنقد ، فإن أبا عامر توخى هدم خصومه وحساده ، وبناء فضله ونبوغه ، وأمّا أبو العلاء فقد شاء أن يعبث بعقيدة الغفران ، وبتهكم أهل عصره في تصورهم الجنة حافلة بالملذات المحسوسة ، والنار مشبعةً بألوان العذاب والتنكيل ، وإن لم يفته الإدلال بعلمه وسعة اطلاعه .

ووجه المعري رسالته إلى رجل يُعرف بابن القارح ، كما وجه ابن شهيد رسالته إلى رجل يدعى أبا بكر بن حزم ؛ إلا أن الكاتب الشامي جعل صاحبه بطلاً لقصته ، تدور عليه حوادثها ؛ ولم يذكر الكاتب الأندلسي صاحبه إلا في بدء رسالته ، ثم سكّته عنه ، وأقام من شخصه بطلاً للقصة يتعهد حوادثها بنفسه ، مستصحباً تابعه زهير بن نعيم دون أن يوليه عملاً يستحق الذكر ، غير التعريف بالأشخاص والأماكن .

وبنى موضوعه على ما عرف وشاهد من مجالس الأدب والمناظرة في زمانه ؛ وقبل زمانه ؛ وعلى ما بلغ إليه من عقيدة العرب الأقدمين ، وهي أن لكل شاعر رئيساً من الجنّ يحبه ، ويتبعه ، ويوحى إليه . غير أنه لم يوفق في تصوير عالم الجن ، وغرائب أرضه وخلقه ، وما اشتهر عنهم من القدرة على الحولة والإتيان بالخوارق التي يعجز عنها الأناسي . فما نرى من أحوالهم العجيبة إلا لمحات ضئيلة لا يغني بها أدب الخرافات والأساطير ، كما في كلامه على جواد زهير بن ثُمَيْر ، وكيف طار بهما إلى أرض التوابع . أو في حديثه عن تابع أبي تمام : « فأنقلب ماء العين عن وجه فتى كفيلة القمر ، ثم اشتق الهواء صاعداً إلينا من قعرها ، حتى استوى معنا . » أو قوله في زُبدة الحِقَب صاحب بديع الزمان : « فلمّا انتهت في الصفة ، ضرب زُبدة الحِقَب الأرض برجله ، فانفجرت له عن مثل برّهوت ، وتدهدى إليها ، واجتمعت عليه ، وغابت عينه . » ومثل ذلك أخبار حيوانات الجن في اجتماعها وأحاديثها . فعالم ابن شهيد إنسي ، وإن أضافه إلى جنّة عبقريّ ، وتوابع الشعراء والكتّاب جديرة بأن تكون مثلاً لأصحابها ، لا أن تُعَدّ في الجنّان ، فليس في وادي الأرواح شيء يختلف عمّا في وادينا من المخلوقات الحيّة ، وغير الحيّة ، سوى ما أشرنا إليه ، وسوى أن الحيوان عاقل ناطق كما في كلبلة ودمنة ، وشاعر عاشق متغزل كما في عبث بشار .

وإذا قلنا إن هذه الأرواح من عالم المثل ، فما نريد به الإفراط على أفلاطون وأتباعه من فلاسفة العرب ، وإنّما نقصد أن أبا عامر ألبس التوابع أثواب أصحابها ، فجاءت على غرار المثل الأفلاطونية في بعض حدودها ، وأبانت عن شخصيات الشعراء والكتّاب في الصفات والأخلاق والآداب . فصاحب امرئ القيس فارس على فرس شقراء تلتهب ، في وادي ذي دوح تنكسر أشجاره .

وتترنم أطيّاره ، كدّارة جُلجُل ؛ وتابع قيس بن الخطيم فارس كأنّه الأسد ، غضوب يُخشى شره ، ويُنْتَقى تهديده ، وكذلك كان الشاعر الجاهلي في بطشه وانتقامه . ونجد رأيّ أبي تمام يعنى بالمدح والرثاء كصاحبه الطائي ، وبوصي أبا عامر ألاّ يكدر قريحته ، إذا دعت النفس إلى القول ؛ وأن يُنْتَح شعره ، بعد جَمّام ثلاثة أيّام من نظمه ، فيذكرنا بوصيّة أبي تمام للبحري . ونسمع قرع النواقيس بذات الأكبراح من دير حنة ؛ وتبدو الرهايين مشدّدة بالزنانير ، بيض اللحى والحواجب ، قد قبضت على العكاكيز ؛ ثمّ نشرف على بيت قد اصطفت دنانه ، وفي فرجته شيخ طويل الوجه والسبّلة ، قد افترش أضغاث زهر ، واتكأ على زق خمر ، وغلبت عليه نشوة الراح فما يستفبق إلاّ على صوت ابن شهيد ينشده خمرية ، فيستريده ، ثمّ يسأله لإنشاد قطعة من مجونه . وما ذاك الشيخ سوى حسن الدنان شيطان أبي نواس . ونرى صاحب المتنبي فارساً على فرس بيضاء ، ينظر من مقلة شوساء ، قد ملئت تيهاً وعُجباً ، ولا يرضى الشعر إلاّ متيناً شديد الأسر ، شأن أبي الطيّب . ويطل علينا شيخ أصلع ، جاحظ العين اليمى ، عليه قلنسوة طويلة ، تذكرنا بطويلة أبي عثمان في حضرة القاضي أحمد بن أبي دؤاد ؛ وإلى جنبه شيخ آخر ، هو صاحب عبد الحميد ، وكلاهما يكره السجع والتكلف . فإذا فات أبا عامر بن شهيد براعة التصوير لعالم الجن ، فما فاته إحسانُ تمثيل الأدباء في أشخاص نوابعهم ، وهذا شيءٌ يحمد عليه .

ونبين من خلال طوافه ومساجلاته ، لإجلاله لبعض الشعراء والكتاب ، وجرأته على بعضهم الآخر ، فبينما نراه يلقي عُيَيْنَةً بن نوفل صاحب امرئ القيس ، فيتدكأ عن الإنشاد في حضرته ، ويهم بالحليصة ، ثمّ ينظر إلى حسن الدنان ، فتدركه مهابته ، ويأخذ في تعظيمه لمكانه من العلم والشعر ، نجده يتعرض لأبي الطبع تابع البحري ، فيباريه في القريض ، فيسود وجهه ، ويكرّر راجعاً إلى

ناوَرَدِهِ دُونَ أَنْ يَسْلَمَ ؛ وَيَنَافِسَ زُبْدَةَ الْحِقَبِ صَاحِبَ بَدِيعِ الزَّمَانِ فِي وَصْفِ الْمَاءِ ، فَيَشْقَى الْأَرْضَ بِرِجْلِهِ ، فَتَبْتَلعَهُ ، مِنْ شِدَّةِ الْحِجْلِ . وَهُوَ فِي الْغَالِبِ يَسْتَطِيلُ عَلَى مَعَاصِرِهِ أَكْثَرَ مِنْهُ عَلَى الْمُتَقَدِّمِينَ ، وَلِأَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي نَفْسِهِ حَرَمَةٌ وَوَقَارٌ .

وَأَمَّا أَبُو الْعَلَاءِ فَإِنَّهُ بَنَى مَوْضُوعَ رِسَالَةِ الْغَفَرَانِ عَلَى مَا ذُكِرَ مِنْ وَصْفِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَمَوْقِفِ الْحَسَابِ ، فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ ، وَتَصَانِيفِ الْمُتَصَوِّفَةِ مِثْلَ كِتَابِ التَّوَهُّمِ لِلْمَحَاسِنِ ، وَمَا جَاءَ مِنَ الْقَصَصِ وَالشُّرُوحِ وَالتَّفْصِيلَاتِ عَلَى خَبَرِ الْمَعْرَاجِ . فَكَانَ فِي تَصْوِيرِ عَالَمِ الْآخِرَةِ أَبْرَعُ مِنْ أَبِي عَامِرٍ فِي تَصْوِيرِ عَالَمِ الْجَنِّ ، وَإِنْ يَكُنْ الْخَيَالُ ، عِنْدَ هَذَا وَذَلِكَ ، يَنْسَاقُ إِلَى الْإِتِّبَاعِ أَكْثَرَ مِنْهُ إِلَى الْإِبْدَاعِ ، فَظَهَرَتْ الْجَنَّةُ بِأَنْهَارِهَا وَأَشْجَارِهَا ، وَطَعَامِهَا وَشَرَابِهَا ، وَجَمَالَ حُورِهَا ، مِنَ الصَّالِحَاتِ النَّاجِيَّاتِ ، وَفِيهِنَّ مَنْ كَانَتْ دَمِيمَةً سَوْدَاءَ ، فَأَصْبَحَتْ فِي الْجَنَّاتِ حُورَاءَ عِيْنَاءَ ، شَفَافَةً بَيْضَاءَ ، أَوْ مِنَ الْمُنَشَّاتِ فِي الْخُلْدِ أَبْكَاراً عُرْباً أَتْرَاباً ، تَنْشَقُّ عَنْهُنَّ الْأَثْمَارُ ، فَيَخْرُجْنَ مِنْهَا كَوَاعِبُ يَرْقُصْنَ ، فَتَهْتَزُّ أَرْجَاءُ الْجَنَّةِ . وَالصَّالِحُونَ مَتَكُونُونَ عَلَى مَفَارِشَ مِنَ السَّنَدَسِ ، أَوْ يَحْمِلُهُمُ الْخُورُ وَالْوُلْدَانُ عَلَى سُرُرٍ مِنْ زَبَرَجَدٍ أَوْ عَسْجَدٍ ، وَهُمْ مُسْتَلَقُونَ عَلَى ظُهُورِهِمْ ، مُنْعَمُونَ بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى . فَلِذَا رَأَوْا عَنُقُوداً مِنَ الْعَنْبِ أَوْ غَيْرِهِ ، انْقَضَبَ عَنِ الشَّجَرَةِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ ، وَحَمَلَتْهُ الْقُدْرَةُ إِلَى أَفْوَاهِهِمْ ، لِذَا لَا هَمَّ لَهَا إِلَّا تَلْبِيَةُ شَهَوَاتِ الْأَبْرَارِ النَّاجِينَ .

وَمَوْقِفُ الْحَشْرِ شَدِيدُ الْهَوْلِ وَالظُّلْمِ ، كَثِيرُ الزَّحَامِ ، لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ فِيهِ إِلَّا مَنْ غُفِرَ لَهُ ، وَخُتِمَ عَمَلُهُ بِالتَّوْبَةِ فِي الدِّيْوَانِ الْأَعْظَمِ ، وَأُعْطِيَ جَوَازَ الْمُرُورِ ، فَيَنْغِبُ مِنَ الْحُورِ نَغْبَاتٍ لَا ظُلماً بَعْدَهَا ، ثُمَّ يَعْبُرُ الصَّرَاطَ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ .

وَيَرَى النَّازِلُ مِنَ الْمَطْلَعِ إِلَى النَّارِ إِبْلِيسَ يَضْطَرِبُ فِي الْأَغْلَالِ وَالسَّلَاسِلِ ؛ وَمَقَامُ الْحَدِيدِ تَأْخُذُهُ مِنْ أَيْدِي الزَّبَانِيَةِ . فَلِذَا التَّمَسَّ مِنْكَ ، وَقَدْ نَجَوْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ ، حَاجَةً ، لَا تَسْتَطِيعُهَا لَهُ ، لِأَنَّ الْآيَةَ سَبَقَتْ فِي أَهْلِ النَّارِ : « وَنَادَى أَصْحَابُ

النار أصحاب الجنة ، أن أفيضوا علينا من الماء ، أو ممّا رزقكم الله . قالوا : إنّ الله حرّمها على الكافرين ! » وهذا صخر أخو الخنساء كالجبل الشامخ ، تضطرم النار في رأسه : كأنّه علكم في رأسه نار . وذلك بشار قد أعطي عينين لينظر إلى ما نزل به من السّكّال ، فإذا أغمضهما حتّى لا ينظر ، فتحهما الزبانية بكلايب من نار . وهناك عنرة يتلذّد في السعير ، والأخطل يتضور وبزفر زفرة تعجب لها الزبانية . فرسالة الغفران لا تشتمل على أبلغ من ذلك في وصف النار والعذاب . وإنّما هي أدقّ تصويراً للجنة وموقف الحساب .

وأقام أبو العلاء في الفردوس المآدب الأنيفة ، ومجالس اللهو والشراب ، والرقص والغناء ، على ما هو مألوف في الحياة الدنيا ، مع ما استفاده من أوصاف الكتب الدينيّة ، أو زيّنه بخياله وفنه ، كذكر طاووس الجنة ، وانبعاثه حيّاً بعد ذبحه وأكله ، أو حديثه عن شجرة الجوز ، وانشقاق كل جوزة منها عن أربع جوارٍ يرقصن على الأبيات المنسوبة إلى الخليل .

وعقدت حلقات الأدب والمذاكرة شأن أبي عامر في التواضع والزواجع ، فطوّف صاحبه ابن القارح على الشعراء وعلماء اللغة ، ينظر في شؤونهم وأحوالهم ، ويسألهم : بم غُفِرَ لهم ، ويستفسرهم أموراً تختص بهم ، أو يوقع بينهم المشاحة والمناظرة ، على مثال ما تقع بين الأدباء في الدار العاجلة ، مع أن الجنة رحضت ما في صدورهم من الحقد والشحناء ، فالأعشى صار عشاء حوّراً ، وانحناء ظهره قيّوماً ؛ وقد شفع له الرسول ، لحرمة يمتّ بها إليه في مدحه ، فغُفِرَ له ، وأُدخِلَ الجنان على أن لا يشرب فيها خمراً . وزهير شاب كالزهرة الجنيّة ، كأنه ما سئم تكاليف الحياة ، ولا عمّر تسعين حجّة ؛ غُفِرَ له لإيمانه بالله ، قبل الإسلام ، ووصيته لبنيه بأن بطيعوا القائم الذي يدعوهم إلى عبادة الله . وعبيد بن الأبرص غُفِرَ له ببيت من الشعر يقول فيه : « وسائلُ الله لا يخبُّ . » فكثّر رواته وحفّاظه ،

وما زال يُنشد ويُحفظ ، حتى أسقط العقوبة عن صاحبه ، وشملته الرحمة ببركته .
وعديّ بن زيد مات نصرانياً فغُفر له ، ولم يدرك الإسلام لتقوم الحجّة عليه .
وهو صاحب قصص وهو في الجنة ، كما كان في الدار القانية . ويسأله ابن القارح
عن إعراب بيت له استشهد به سيبويه ، فيجيبه : « دعني من هذه الأباطيل ! »
وكذلك كان جواب بشار من أسفل الجحيم ، عندما سأله عن تسكين باء السُّبْد
في قافيته ، فقال : « دعني من أباطيلك ، فأني لمشغول عنك ! » ويمنع النابغة
الجعدي والأعشى في مجلس غناء ، فتحدث بينهما ملاحاة أدبية ، يتشامان
فيها ، ويتنازعان فضل الشاعرية والحسب ، فيستوقفهما ابن القارح ، ويقول
لهما : « لا عريدة في الجنان . »

ويشهد أبو العلاء في النقد والغمز على المحدثين أكثر منه على الأقدمين ،
فإذا عاب الإسناد في قافية عمرو بن كلثوم ، لم يزد على أن يقول بلسان ابن
القارح : « لوددت أنك لم تساند في قولك . » ويأبى أن ينسب إلى امرئ القيس
أبياتاً من التسميط ركيكة ، ظاهرة النحل ، فجعله ينكرها فيقول : « والله ، ما
سمعت هذا قط . » مع أنه لم يترفق في نقد بشار ، على إعجابه بشعره ، ولا
أولى أبا تمام شيئاً من عطفه ، حين ترك عنّرة يقول في كلامه : « أمّا الأصل
فعربي ، وأمّا الفرع فنطق به غبي ، وليس هذا المذهب على ما تعرف قبائل
العرب . »

وكان لأبي عليّ الفارسي نصيب من نقده وسخره . فألب عليه جماعة من
الأدباء في الجنة ، تلومه وتُعتته لتأويلاته المستهجنة في اللغة والنحو ، فينقذه ابن
القارح منهم ، ويبعدهم عنه .

وأنزل سخطه على الرّجّازين ، فجعل بيوتهم دون سائر البيوت السماوية
ارتفاعاً ، كما تنخفض أبيات الرجز عن أبيات القصيد ؛ وعمد إلى صاحبهم رؤية

ابن العجاج ، فأكثر الإنحاء عليه ، وعاب قوافيه النافرة ، وصلابة ألفاظه ، وضيق أغراضه ومعانيه .

وللجن في رسالة الغفران موضع باسم جنة العفاريت ، ليس عليها النور الشعشعاني كجنة الأناسي ، وإنما هي أدحال وغماليل ، وأهلها يدركهم المشيب ، مع أن سائر أهل الجنة شباب ؛ لأن الجن أعطوا الحولة في الدار الماضية ، فكانوا يتصورون ، على مشيبتهم ، حية أو عصفوراً أو حمامة ، فحرموا الشباب ، وفيض النور الإلهي في الجنة ، وصوّر بنو آدم فيها أحسن تصوير . وهنا يأتي أبو العلاء على ذكر أشياء من خصائص الجن كتحويلات أبي هدرش ، ورجم العفاريت بالشهب المحرقة ، مما لم يُعنَ به أبو عامر في رسالته ، إلا أنه لم يرفع شأن التوابع مثله ، بل عدّهم أطفالاً من الجن ، ينفثون إلى الإنس القليل من الشعر والأوزان : « وهل يعرف البشر من التنظيم إلا كما تعرف البقر من علم الهيثة ، ومساحة الأرض ١٩ »

والحيوان عند المعري عاقل ناطق ، كما هو عند ابن شهيد ، غير أنه يستطيع التحول إذا شاء ، فإن حية الفردوس همّت بأن تنتفض من إهابها فتصير مثل أحسن غواني الجنة ، ليرشف الشيخ ابن القارح رضابها ، وهذا لم تستطعه بغلة أبي عيسى في التوابع والزوابع ، مع ما بها من الشوق إلى أبي عامر . وكلاهما ذكر الإوز في رسالته ، فأما إوزة ابن شهيد ، فإنّها أدبية نحوية تبحث في الأصول والفروع ، ولكنها بلهاء حمقاء ، كما هو معروف عن بنات جنسها ؛ وأمّا إوزة المعري ، فقد نفضت عنها في الجنة بله الإوز ، وبوسعها أن تتحول كاعباً حسناً ، ترفل في وشي الفردوس ، وتحسن الغناء والضرب على الأوتار . وقد أبدع أبو عامر في وصف حركات إوزته وتقلّبها في الماء ، كما أبدع أبو العلاء في سخره اللطيف ، حين أراد جماعة الشعراء أن يقتسموا الإوزات المغنيات ، فقال

ليد بن ربيعة : « إن أخذ أبو ليلى قينة ، وأخذ غيره مثلها ، أليس ينتشر خبرها في الجنة ، فلا يؤمن أن يسمى فاعلو ذلك أزواج الإوز ! »

والسخر في رسالة الغفران من أخصّ ميزاتهما الأدبية ، فإن ضرير المعرفة على تشاؤمه المظلم ، يلجأ إليه في تصانيفه ، تسنيداً لآرائه الفلسفية ، وإرضاء لشكه واضطرابه في الغيبات والعقائد الدينية ؛ ويميل به في الرسالة إلى الدعابة والعبث ، فهو ناعم الملمس لا خشونة فيه ، عميق الغور ، يغشيه ستار من الإيمان والاستدلال بالآيات والأحاديث ، فإذا صنع ابن القارح مأدبة في الجنان ، قال : وتلك لذة يهبها الله ، عزّ سلطانه ، بدليل قوله : « وفيها ما تشتهيهِ الأنفس ، وتلذّ الأعين ، وأنتم فيها خالدون ، وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ، لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون . » وإذا انفلقت ثمار الجنة عن حوريات تبرق لحسنها ، قال : هذا كما جاء في الحديث : « أعددت لعبادي المؤمنين ما لا عين رأت ، بَلَغَ ما اطلَّعت عليه . »

فمدار سخره على ما يتصوّر الناس من الأشياء المادية في الآخرة ، ثم على عقيدة الغفران ، وسهولة الحصول عليه عندهم ، فرمما غفر الله للخاسر بيت من الشعر يُحفظ ويُروى ، كما غفر للأعشى وزهير وعبيد والحطيئة .

ولا تخلو رسالة التوابع والزوابع عن السخر ؛ فإن ابن شهيد ، في تعرّضه للشعراء والأدباء ، أخرج الكلام عليهم مُخرَجَ الهزل والتهكم ؛ إلا أن سخريته تنسجم بالحدّة والخشونة والإقذاع والوضوح ، كما في قوله : « وقلت للمنشدة : ما هَوَيْتُ ؟ قالت : هَوَيْتُ ، بلغة الحمير . فقلت : والله ، إن للروث رائحة كريهة ، وقد كان أنف الناقة أجدر أن يحكم في الشعر . » وقلّما تُلطف واستدق فيها ، مثل قوله للإوزة النحويّة : « محمول عنك ، أمّ خفيف ، لا يلزم الإوز حفظُ أدب القرآن . »

وأما لغة التواضع فإنّها رشيقة طليّة ، موشاة أنيقة ، غنيّة بالأوصاف والصور والألوان ، بخلاف رسالة الغفران ، فإن لغتها تكاد تفتقر إلى الوشي والتصوير ، إلاّ ما اقتبس صاحبها من القرآن ، أو أخذ عن سابقيه . وهذا أمر طبيعي في كاتب ضريب طيّس النور في عينيه عن الصورة واللون ، قبل من الإدراك والتمييز . فأبو عامر يسمو على المعري برونق الديباجة ، ودقة الوصف ، ولكنه ينحدر عنه بعمق الفكرة ، ولطافة السخر ، وقوّة الجاذبيّة ، وسحر الاستهواء ؛ وله فضل المتقدّم على كل حال .

الكتاب الثاني

رسالة

النواجع والزواج

المدخل

زهير بن نمير

لله أبا بكر^١ ظن^٢ رَمَيْتَه فَأَصْمَيْتَ ، وَحَدَسُ^٣ أَمَلْتَه فَمَا أَشْوَيْتَ^٤ !
أَبْدَيْتَ^٥ بِهِمَا وَجَهَ الْبَحْلِيَّةِ ، وَكَشَفْتَ^٦ عَنْ غُرَّةِ الْحَقِيقَةِ ، حِينَ لَمَحْتَ صَاحِبِيكَ
الَّذِي تَكْسَبْتَهُ وَرَأَيْتَهُ قَدْ أَخَذَ بِأَطْرَافِ السَّمَاءِ ، فَأَلَفَ بَيْنَ قَمَرِيهَا ، وَنَظَّمَ
فَرَقْدَتَهَا ، فَكَلَّمَا رَأَى ثَغْرًا سَدَّهُ بِسُهَاهَا^٧ ، أَوْ لَمَحَ خَرَقًا رَمَّهُ بِزُبَانِهَا^٨ ،

١ أبو بكر : هو أبو بكر بن حزم ، كما ذكر ابن بسام ، وأسرته شيرة في الأندلس ومنها الفقهاء والوزراء والأدباء . جاء في وفيات الأعيان : وكان بين ابن شهيد وابن حزم الظاهري مكاتبات ومداعبات . والمراد به الفقيه أبو محمد بن حزم . وذكر الفتح بن خاقان في مطمح الأنفس أن ابن حزم كنيته أبو المنيرة ، وكان هو وابن شهيد خليلي صفاء لا ينفصلان في رواح ولا مقيل . وابن حزم هذا من الوزراء الكتاب .

٢ أصميت : أي رميت فقتلت الصيد في مكانه . ما أشويت : ما أخطأت المقتل . يقال أشواه : أصاب شواه ، أي أطرافه ، لا مقتله .

٣ السهى : كوكب خفي من بنات نمش الصخرى ، مجاور للقطب ، وكان العرب يمتحنون به أبصارهم خلفائه .

٤ رمه : أصلحه . الزباني : واحد الزبانيين ، وهما كوكبان نيران في قرني برج المقرب معترضان بين الشمال والجنوب ، بينهما قيد رمح ينزلهما المقرب في الليلة السابعة عشرة .

إلى غير ذلك . فقلت : كيف أوتيَ الحكمَ صبيّاً ، وهزّزَ بجذعِ نخلة الكلام
فاسأقطَ عليه رطباً جنياً ؛ أما إن به شيطاناً يهديه ، وشيصباناً^١ يأتيه !
وأقسمُ أنْ له تابعة^٢ تُنجِدُهُ ، وزابعة^٣ تُؤيِّدُهُ ، ليس هذا في قدرةِ الإنس ،
ولا هذا النفسُ لهذه النفسِ . فأما وقد قُلتَها ، أبا بكرٍ ، فأصيحُ أسمعُك
العجبَ العجيبَ :

كنتُ أيامَ كتابِ الهِجاءِ ، أحنُّ إلى الأدباءِ ، وأصبو إلى تأليفِ الكلامِ ؛
فاتبعتُ اللهَ وأوين ، وجلستُ إلى الأساتيدِ ، فنبَّضَ لي عِرقُ الفهمِ ، ودَرَ
لي شريانُ العلمِ ، بموادِّ رُوحانيةٍ ؛ وقليلُ الالتِماحِ من النظرِ يزيدني ، ويسيرُ
المطالعةِ من الكتبِ يُفيدني ، إذ صادفَ شَنُّ العلمِ طبقةَ . ولم أكنُ كالثلجِ
تَقشِّيسُ منه نارا ، ولا كالخمارِ يحْمِلُ أسفارا . فطعنتُ ثغرةَ البيانِ دِراكاً ،
وأعلقتُ رِجلَ طيرهِ أشراكاً ، فانثالتُ في العجائبِ ، وانهالت عليَّ الرغائبُ .
وكان لي أوائلَ صَبوتي هَوًى اشتدَّ به كَلْفِي ، ثم لحِقتُ بَعْدُ مَدَلٌ
في أثناء ذلك المَيلِ . فاتَّفَقَ أنْ ماتَ مَنْ كنتُ أهواه مدَّةَ ذلك المَلَلِ ،
فجَرَعْتُ وأخَذْتُ في رثائِهِ يوماً في الحائِثِ ، وقد أبْهِمَتْ عليَّ أبوابُهُ ،

١ الشيصبان : اسم الشيطان ، وقبيلة من الجن .

٢ التابعة : جنية تحب الإنسان وتتبعه حيث ذهب .

٣ الزابعة ، والمعروف الزوينة ، كما في القاموس وغيره من المعجمات : رئيس للجن أو اسم شيطان ،
يجمع على زوابع .

٤ انشاك : انصب ، وعليه القول تتابع وكثر فلم يدر بأيهِ يبدأ .

٥ الرغائب ، جمع الرغبة : الأمر المرغوب فيه ، والعتاء الكثير .

٦ الحائِث : البستان .

وانفردتُ فقلت :

تولّى الحِمَامُ بظَبْيِي الخُدُورَ ، وفازَ الرّدى بالغَزَالِ الغَرِيرِ

إلى أن انتهيتُ إلى الاعتذارِ من الملل الذي كان ، فقلت :

وكنْتُ مَلِكُنْكَ لا عن قِلَى ، ولا عن فسادٍ جرى في ضَمِيرِي

فأرتجَ عليّ القولُ وأُفحِمتُ ، فإذا أنا بفارسٍ ببابِ المجلسِ على
فرَسٍ أدْهَمَ كما بَقَلَ وجهُهُ^١ ، قد اتكأَ على رُجْعِهِ ، وصاح بي : أعجزاً
يا فتي الإنسان ؟ قلتُ : لا وأبيك ، للكلامِ أحيان ، وهذا شأنُ الإنسان ! قال
لي : قلْ بعده :

كمِثْلٍ مَلالٍ الفتى للنعيم ، إذا دامَ فيه ، وحالٍ السُّرورِ

فأثبتُ إجازته ، وقلتُ له : بأبي أنت ! مَنْ أنت ؟ قال : أنا زُهَيْرُ
ابنِ نُمَيْرٍ من أشجعِ الجُحَيْنِ^٢ . فقلتُ : وما الذي حَدَاكَ إلى التصوُّرِ لي ؟
فقال : هوَى فبك ، ورغبةٌ في اصطفايك . قلت : أهلاً بكَ أيُّها الوجهُ
الوَضَّاح ، صادفتُ قلباً إليك مقلوباً^٣ ، وهوَى نحوكَ مجنوباً . ونحادثنا حيناً

١ بقول وجهه : خرج شعره .

٢ أشجع الجح : أي ينتسب إلى بني أشجع في الجح ، وابن شهيد ينتسب إلى بني أشجع في الإنسان ،
فيه وبين شيطانه قرابة ، وبنو أشجع قبيلة عربية .

٣ إليك : أي شوقاً إليك . مقلوباً : مصاباً ، من قلبه : أصاب قلبه ، ويأتي مقلوباً بمعنى محولاً ،
فيكون المعنى محولاً إليك ، يقال : قلبه ، أي حوله عن وجهه .

ثم قال : متى شئت استحضاري فأنشد هذه الأبيات :

والي زهير الحب ، يا عز ، إنه إذا ذكرته الذآكرات أتاها
إذا جرت الأفواه يوماً بذكرها يخيل لي أنني أقبل فاهها
فأغشى ديار الذآكرين ، وإن نأت أجارع من داري ، هوى لهواها^١

وأوتب الأدهم جدار الحائط ثم غاب عني . وكنت ، أبا بكر ، متى
أريج علي ، أو انقطع بي مسلك ، أو خانتني أسلوب أنشد الأبيات فيمثل
لي صاحبي ، فأسير إلى ما أرغب ، وأدرك بفريحتي ما أطلب . وتأكدت
صحبتنا ، وجرت قصص لولا أن يطول الكتاب لذكرت أكثرها ، لكنني
ذاكر بعضها .

١ والي : لحقه الحرم ، وهو حذف أول اللوح المجموع من أول البيت ، أي حذف فاء فعولن في الطويل ، فبقي عولن ، فنقل إلى فعلن .

٢ أجرع : جمع أجرع ، وهو الكثيب له جانب رمل ، وجانب حجارة ، أو هو أرض ذات حزونة يملوها رمل .

الفصل الاول

توابع الشعراء

شيطان امرئ القيس

تذاكرت يوماً مع زهير بن نمير أخبار الخطباء والشعراء ، وما كان يألّفهم من التوابع والزوابع ، وقلت : هل حيلة في لقاء من اتفق منهم ؟ قال : حتى أستاذن شيخنا . وطار عني ثم انصرف كلمح بالبصر ، وقد أذن له ، فقال : حلّ على متن الجواد . فصرنا عليه ، وسار بنا كالطائر يجتاب الجو فالجو ، ويقطع الدوّ فالدوّ ، حتى التمحت أرضاً لا كأرضنا ، وشارفت جوّاً لا كجوّنا ، متفرّج الشجر ، عطر الزهر ، فقال لي : حللت أرض الجين أبا عامر ، فبمن تريد أن نبدا ؟ قلت : الخطباء أولى بالتقديم ، لكنني إلى الشعراء أشوق . قال : فمن تريد منهم ؟ قلت : صاحب امرئ القيس . فأمال العنان إلى واد من الأودية ذي دوح تنكسر أشجاره ، وترنم أطياره ، فصاح : يا عتيبة بن نوفل ، بسقط اللوى فحوّمل ،

١ الدر : القلاة .

٢ بسقط : الباء للقسم .

ويومِ دارَةِ جُلْجُلٍ ، إلّا ما عَرَضَتْ عَلَيْنَا وَجْهَكَ ، وأنشدتنا من شِعْرِكَ ،
وسمِعتَ من الإنسيِّ ، وعرفتنا كيف إجازتكُ له ! فظهرَ لنا فارسٌ على
فرسٍ شقراءَ كأنّها تلتَهيبُ ، فقال : حيّاكَ اللهُ يا زُهَيْرُ ، وحيّا صاحبَكَ !
أهذا فتاهُم ؟ قلتُ : هو هذا ، وأيُّ جَمْرَةٍ يا عُتَيْبَةُ ! فقال لي : أنشدْ ،
فقلتُ : السَيِّدُ أُولَى بالإنشاد . فتطامَحَ طَرْفُهُ ، واهتزَّ عِطْفُهُ ، وقَبَضَ
عِنانَ الشَّقْرَاءِ وضربَها بالسَّوْطِ ، فسَمَتَ تُحْضِرُ طُولاً عَنّا ، وكرَّ
فاستَقْبَلنا بالصَّعْدَةِ^١ هازِأً لها ، ثم رَكَزَها وجعلَ يُنْشِدُ :

سما لك شوقٌ بعدما كان أقصراً^٢

حتى أكملها ثم قال لي : أنشدْ ؛ فهَمَّنتُ بالحَيْصَةِ^٣ ، ثم اشتدَّت قُوَى
نَفْسي وأنشدتُ :

شَجَّتْهُ مَغَانٍ مِنْ سُلَيْمَى وَأَدْوَرُ^٤

حتى انتهيتُ فيها إلى قولي :

وَمِنْ قُبَّةٍ لَا يُدْرِكُ الطَّرْفُ رَأْسَهَا ، تَزِلُّ بِهَا رِيحُ الصَّبَا فَتَحْدَرُ
تَكَلَّفْتُهَا وَاللَّيْلُ قَدْ جَاشَ بَحْرُهُ ، وَقَدْ جَعَلْتُ أُمُوجَهُ تَتَكَسَّرُ

١ الصعدة : القناة المستوية .

٢ سما لك : مطلع قصيدة مشهورة لامرئ القيس ، قالها وهو ذاهب إلى بلاد الروم .

٣ الحيصة : الانهزام والحرب .

٤ المغاني : المنازل . أدور : جمع دار .

ومن تحت حِضْنِي أبيضٌ ذو سَفَاسِقٍ ، وفي الكَفِّ من عَسَّالَةٍ الحَطَّ أَسْمَرُ^١
هُمَا صاحِبَايَ مِنْ لَدُنْ كُنْتُ يافِعاً ، مُقِيلَانِ مِنْ جَدِّ الفَقِي حِينَ يَنْعَثُرُ^٢
فَذَا جَدَوَلٌ فِي الغِمْدِ تُسْقَى بِهِ المَتَى ، وَذَا غُصْنٌ فِي الكَفِّ يُجْنَى فَيُثْمِرُ^٣
فَلَمَّا انْتَهَيْتُ تَأْمَلْنِي عَتِيْبَةٌ^٤ ثُمَّ قَالَ : اذْهَبْ فَقَدْ أَجَزْتُكَ . وَغَابَ عَنَّا .

شيطان طرفة

فَقَالَ لِي زُهَيْرٌ : مَنْ تُرِيدُ بَعْدُ ؟ قُلْتُ : صَاحِبَ طَرْفَةٍ . فَجَزَعْنَا^٥ وَادِيَّ
عَتِيْبَةٌ ، وَرَكَضْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى غَيْضَةٍ شَجَرُهَا شَجَرَانِ : سَامٌ^٦ يَقُوقُ
بَهَاراً^٧ ، وَشِحْرٌ^٨ يَعْبَقُ هِنْدِيّاً^٩ وَغَاراً . فَرَأَيْنَا عَيْناً مَعِينَةً^{١٠} تَسِيلُ ، وَيَدُورُ
مَأْوَها فَلَتَكِيّاً وَلَا يَحْوُلُ . فَصَاحَ بِهِ زُهَيْرٌ : يَا عَنَرُ^{١١} بَنَ الْعَجَلَانِ ، حَلِّ
بِكَ زُهَيْرٌ وَصَاحِبُهُ ، فَبَحْوَلَةٌ ، وَمَا قَطَعْتَ مَعَهَا مِنْ لَيْلَةٍ ، إِلَّا مَا عَرَضْتَ
وَجَهْتَ لَنَا ! فَبَدَأَ إِلَيْنَا رَاكِبٌ جَمِيلٌ^{١٢} الْوَجْهَ ، قَدْ تَوَشَّحَ السَّيْفَ ، وَاشْتَمَلَ

١ السفاسق : جمع فسقة وسفوقة ، وهي فرند السيف أو طرائقه .

٢ جزعنا : قطعنا .

٣ السام : الخيزران . البهار : نبت طيب الرائحة ينبت أيام الربيع ، ورده أصفر الورق ، أحمر الوسط ، أسمن من ورق البابونج ، ويقال له العرار .

٤ الشحر أو الشحير كما في القاموس وغيره من المعجمات : اسم شجر .

٥ الهندي : أي الشجر الهندي ذو الرائحة الزكية .

٦ معينة : ظاهرة جارية على وجه الأرض .

عليه كساء خَزَ ، ويَدِّه خَطَي ، فقال : مرحباً بكُما ! واستنشدني فقلت :
الزعيمُ أولى بالإنشاد ، فأنشد :

لِسُعْدَى بِحِزَانِ الشَّرِيفِ طُلُولُ^١

حتى أكلتها ، فأنشدته من قصيدة :

أَمِنْ رَسْمِ دَارٍ بِالْعَقِيقِ مُحِيلِ

حتى انتهيتُ إلى قولي :

ولَمَّا هَبَطْنَا الْغَيْثَ نُدَعْرُ وَحْشُهُ على كُلِّ خَوَارِ الْعَيْنَانِ أُسَيْلُ^٢
وَوَارَتْ بَنَاتُ الْأَعْوَجِيَّاتِ بِالضُّحَى أَبَابِيلَ ، مِنْ أَعْطَافٍ غَيْرِ وَبِيلِ^٣
مُسَوِّمَةٌ نَعْتَدُهَا مِنْ خِيَارِهَا ، لِيَطْرُدَ قَنَيْصِ ، أَوْ لِيَطْرُدَ رَعِيلِ^٤
إِذَا مَا تَغَنَّى الصَّحْبُ فَوْقَ مُتُونِهَا ضُحِيًّا ، أَجَابَتْ تَحْتَهُمْ بِصَهِيلِ

١ لسعدى : في ديوان طرفة : هند . الحزبان : الأمكنة الغليظة الصلبة ، مفرددها الحزير . الشريف :
أعلى جبل ببلاد العرب ، قاله صاحب القاموس وقد صمده ، وماء لبني نمر بنجد ، تنسب إليه
المقبان ، أو واد بنجد ، وحصن من حصون زبيد باليمن ، ذكر ذلك كله ياقوت ، وفي الأصل
الشديف ، والتصحيح عن ديوان طرفة . وتمام البيت : تلوح وأدنى عهد من محيل .

٢ الغيث : أي النبات المسبب عن الغيث ، وهو عجاز مرسل . خوار العينان : أي فرس لين العطف .
الأسيل : السبط المرسل ، وتستحب الإسالة في خد الفرس ، وهي دليل الكرم .

٣ الأعوجيات : أي الخيول الكريمة ، منسوبة إلى أعوج ، فرس لبني هلال مشهور . أببيل :
متفرقة فرقا ، جمع لا واحد له . الأعطاف : جمع عطف بالكسر ، وهو قارة الطريق .
الوبيل : المرعى الوخيم .

٤ المسومة : الخيول المعلقة بعلامات الفزو . نعتدها : أي نعتدها ، من أعد .

نَدُّوسُ^١ بها أَبْكَارَ نَوْرِ^٢ كَأَنَّهُ
رَمَيْنَا بها عُرْضَ الصَّوَارِ^٣ فَأَقْعَصَتْ^٤
وَبَادَرَ^٥ أَصْحَابِي التَّزُولَ ، فَأَقْبَلْتُ^٦
نُحْمَسَحُ^٧ بِالْحَوَذَانِ مِنْهُ أَكْفُنَا ،
فَقُلْنَا لِسَاقِيهَا : أَدِرْهَا سُلَاقَةً^٨
فَقَامَ بِكَاسِيهِ مُطِيعاً لِأَمْرِنَا ،
وَشَعَشَعَ رَاحِيَتَهُ ، فَمَا زَالَ مَائِلاً^٩
إِلَى أَنْ ثَنَاهُمْ رَاكِدِينَ ، لَمَّا احْتَسَوْا ،
نَشَاوَى عَلَى الزَّهْرَاءِ ، صَرَعى كَأَنَّهُمْ^{١٠}
فَصَاحَ عَنَّا : اللَّهُ أَنْتَ ! اذْهَبْ فَمِنْكَ مُجَازٌ . وَغَابَ عَنَّا . ثُمَّ مِلْنَا عَنْهُ .

-
- ١ العرض بالضم : الجانب . الصوار : القطيع من البقر الوحشي ، والمراد هنا قطع من الظباء .
أقعصت : قنلت . الأغن : الطبسي يخرج صوته من خياشيمه . بغير قنيل : أي بغير ثأر لنا وقود .
٢ النشيل : اللحم الذي تنشله بيدك من القدر بلا مفرقة . أو المضمو الذي تأخذه بيدك ، فتتناول ما
عليه من اللحم بفيلك .
٣ الحوذان : نبت نوره أصفر ، في الأصل الجودان ، ولا معنى له ، وقد مر وصفه لأبكار النور ،
وشبهها برداء عروس ، وهنا يذكر تمسح الأيدي بها من اللحم .
٤ الشمول : الحمر ، أو الباردة منها .
٥ التميل : العنق .
٦ الزهراء : أي الأرض الزهراء ، أو أراد بها مدينة الزهراء بالقرب من قرطبة .

شيطان قيس بن الخطيم

فقال لي زهير : إلى مَنْ تَتَوَقُّ نفسُكَ بَعْدُ من الجاهليين ؟ قلت : كفاني مَنْ رَأَيْتُ ، اصْرِفْ وَجْهَ قَصْدِنَا إلى صَاحِبِ أَبِي تَمَام . فَرَكَضْنَا ذَاتَ الْيَمِينِ حِيناً ، وَبِشْتَدُّ فِي إِثْرِنَا فَارِسٌ كَأَنَّهُ الْأَسَدُ ، عَلَى فَرَسٍ كَأَنَّهَا الْعُقَابُ ، وَهُوَ فِي عَدْوِهِ ذَلِكَ بِنَشِيد :

طَعَنْتُ ابْنَ عَبْدِ الْقَيْسِ طَعْنَةً ثَائِرٍ ، لَهَا نَقْدٌ ، لَوْلَا الشَّعَاعُ ، أَضَاءَهَا
فَاسْتَرَبْتُ مِنْهُ ، فَقَالَ لِي زَهِيرُ : لَا عَلَيْكَ ، هَذَا أَبُو الْخَطَّارِ صَاحِبُ قَيْسِ
ابْنِ الْخَطِيمِ . فَاسْتَبَى لُبِّي مِنْ إِنْشَادِهِ الْبَيْتَ ، وَازْدَدْتُ خَوْفاً بِالْجُرْأَتِهِ ،
وَأَنْتَا لَمْ تُعَرِّجْ عَلَيْهِ . فَصَرَفَ إِلَيْهِ زَهِيرٌ وَجْهَ الْأَدْهَمِ ، وَقَالَ : حَيَّاكَ اللَّهُ
أَبَا الْخَطَّارِ ! فَقَالَ : أَهْكَذَا يُحَادُّ عَنْ أَبِي الْخَطَّارِ ، وَلَا يُخْطَرُ عَلَيْهِ ؟
قَالَ : عَلِمْنَاكَ صَاحِبَ قَنْصٍ ، وَخِيفْنَا أَنْ نَشْغَلَكَ . فَقَالَ لِي : أَنْشِدْنَا يَا
أَشْجَعِي ، وَأَقْسِمُ أَنَّكَ إِنْ لَمْ تُجِدْ لَيَكُونَنَّ يَوْمَ شَرٍّ . فَأَنْشَدْتُهُ قَوْلِي مِنْ
قَصِيدَةٍ :

١ البيت من قصيدة لقيس بن الخطيم الأوسي . ابن عبد القيس : هو قاتل والد قيس بن الخطيم . ثائر : أخذ بالثار . النفذ : ما ينفذ من الطعنة . الشعاع : الدم المتفرق المنتشر . أضواءه : فاعله يعود إلى نفذ . يقول : لولا الدم المنتشر في هذه الطعنة ، لظهر منها النور ، لأنَّه نفذت من جانب إلى آخر .
٢ يخطر عليه : أي يمر به .

مَنَازِلُهُمْ تَبْكِي لَكَ عَفَاءَهَا

ومنها :

خَلِيلِيَّ عُوجًا ، بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمَا ،
فَلَمْ أَرَ أُسْرَابًا كَأُسْرَابِهَا الدُّمَى ،
وَلَا كَضَلَالٍ كَانَ أَهْدَى لَصَبُوتِي ،
وَمَا هَاجَ هَذَا الشُّوقَ إِلَّا حَمَائِمٌ ،
عَجِبْتُ لِنَفْسِي كَيْفَ مَلِكُهَا الْهَوَى ،
وَلَوْ أَتَيْتُ أَنْحَتَ عَلَيَّ أَكَارِمٌ ؛
وَلَكِنْ جُرْذَانُ الشُّغُورِ رَمَيْتَنِي ،
إِلَيْكَ أبا مَرَّوَانَ أَلْقَيْتُ رَايَا
هَزَزْتُكَ فِي نَصْرِي ضُحَى فَكَأَنِّي
نَقَضْتُ عُرَى عِزِّ الزَّمَانِ ، وَإِنْ عَتَا ،
بِعِزَّةِ نَفْسٍ لَا أُرِيدُ بَقَاءَهَا
بِدَارَتِهَا الْأَوَّلَى نُحَيِّ فِتْنَاءَهَا ؛
وَلَا ذَنْبَ مِثْلِي قَدَرَعَى ، ثُمَّ ، شَاءَهَا^١
لِيَالِي يَهْدِينِي الْغَرَامُ خِيَاءَهَا
بَسَكَيْتُ لَهَا لَمَّا سَمِعْتُ بُكَاءَهَا
وَكَيْفَ اسْتَقَرَّ الْغَانِيَاتُ إِبَاءَهَا ؟
تَرَضَّيْتُ بِالْعِرْضِ الْكَرِيمِ جَزَاءَهَا
فَأَكْرَمْتُ نَفْسِي أَنْ تُرِيقَ دِمَاءَهَا
بِحَاجَةِ نَفْسٍ مَا حُرِبَتْ خِزَاءَهَا^٢
هَزَزْتُ ، وَقَدْ جِئْتُ الْجِبَالَ ، حِيرَاءَهَا^٣
بِعِزَّةِ نَفْسٍ لَا أُرِيدُ بَقَاءَهَا
فَلَمَّا انْتَهَيْتُ تَبَسُّمٌ وَقَالَ : لَنِعْمَ مَا تَخَلَّصْتَ ! اذْهَبْ فَقَدْ أَجَزْتُكَ .

١ أُسْرَابُهَا الدُّمَى : رِوَايَةُ يَتِيمَةِ الدَّهْرِ : أُسْرَابُهَا الْأَلَى .

٢ أَبُو مَرَّوَانَ : أَبِي الْوَزِيرِ أَبُو مَرَّوَانَ ابْنُ الْجَزِيرِيِّ ، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ابْنِ شَيْبَةَ مَسَاجِلَاتُ شُعْرِيَّةٍ . رَايَا : زَائِدًا مَرْتَفَعًا . حُرِبَتْ : سَلِبَتْ ، لِمَجْهُولٍ . خِزَامُهَا ، عَلَى مَدِّ الْمَقْصُورِ : شِدَّةُ حَيْثُهَا .

٣ حِيرَاءُ : جَبَلٌ بِمَكَّةَ .

صاحب أبي تمام

ثُمَّ انصَرَفْنَا ، وَرَكَضْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى شَجَرَةٍ غَيْنَاءٍ^١ يَتَفَجَّرُ مِنْ
أَصْلِهَا عَيْنٌ كَمَقْلَةٍ حَوْرَاءَ . فَصَاحَ زُهَيْرٌ : يَا عَتَابُ بْنُ حَبْنَاءَ ، حَلَّ بِكَ
زُهَيْرٌ وَصَاحِبُهُ ، فَبَعْمَرُوا الْقَمَرَ الطَّالِعَ ، وَبِالرَّقْعَةِ^٢ الْمَفْكُوكَةِ^٣ الطَّابِعِ^٤ ،
إِلَّا مَا أَرَيْتَنَا وَجْهَكَ ! فَانْفَلَقَ مَاءُ الْعَيْنِ عَنْ وَجْهِ فَتًى كَفَلِقَةَ الْقَمَرِ ،
ثُمَّ اشْتَقَّ الْهَوَاءُ صَاعِدًا إِلَيْنَا مِنْ قَعْرِهَا حَتَّى اسْتَوَى مَعَنَا . فَقَالَ : حَيَّاكَ
اللَّهُ يَا زُهَيْرُ ، وَحَيَّا صَاحِبَكَ ! فَقُلْتُ : وَمَا الَّذِي أَسْكَنَكَ قَعْرَ هَذِهِ الْعَيْنِ
يَا عَتَابُ ؟ قَالَ : حَيَّائِي مِنَ التَّحَسُّنِ بِاسْمِ الشَّعْرِ وَأَنَا لَا أَحْسِنُهُ . فَصِيحْتُ :
وَيْلِي مِنْهُ ، كَلَامُ مُحَدِّثٍ^٥ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ ! وَاسْتَنْشَدَنِي فَلَمْ أَنْشِدْهُ إِجْلَالًا
لَهُ ، ثُمَّ أَنْشَدْتُهُ :

أَبَكَيْتَ ، إِذْ ظَعَنَ الْفَرِيقُ^٦ ، فِرَاقَهَا

حَتَّى انْتَهَيْتُ فِيهَا إِلَى قَوْلِي :

١ الغيناء : الشجرة الخضراء .

٢ الطابع يفتح الباء ويكسرهما : الخاتم يطبع به ، يشير إلى قول أبي تمام :

يَا صَمْرُو ، قُلْ لِلْقَمَرِ الطَّالِعِ : اتَّسَعَ الْخَرَقُ عَلَى الرَّاقِعِ
يَا طُولُ فِكْرِي فَيْكُ مِنْ حَامِلِ لِرَقْعَةِ مَفْكُوكَةِ الطَّابِعِ

٣ محدث . أي من الشعراء المحدثين ، والمراد بهم العباسيون الذين يميلون إلى تزويق الكلام وتوحيده .

٤ الفريق : الجماعة من الناس .

إِنِّي امْرُؤٌ لَعِيبَ الزَّمَانِ بِهَيْمَتِي ، وَسُقِيتُ مِنْ كَأْسِ الْخُطُوبِ دِهَاقَهَا
وَكَبُوتُ طِرْفًا فِي الْعُلَى ، فَاسْتَضَحَكْتُ
وَلِذَا ارْتَمَتْ نُحُوي الْمُنَى لِأَنَالَهَا ، وَقَفَ الزَّمَانُ لَهَا هُنَاكَ فَعَاقَهَا
وَلِذَا أَبُو يَحْيَى تَأَخَّرَ نَفْسُهُ ، فَمَتَى أَوْمَلُ فِي الزَّمَانِ لِحَاقَهَا ؟^٢

فَلَمَّا انْتَهَيْتُ قَالَ : أَنْشِدْنِي مِنْ رِثَائِكَ . فَأَنْشَدْتُهُ :

أَعِينَا امْرَأً نَزَحَتْ عَيْنُهُ ، وَلَا تَعْجِبَا مِنْ جُفُونِ جِمَادٍ^٣
إِذَا الْقَلْبُ أَحْرَقَهُ بَثُّهُ ، فَإِنَّ الْمَدَامِيعَ تَلَوُّ الْفُؤَادِ
يَوَدُّ الْفَتَى مَنَهْلًا خَالِيًا ، وَسَعْدُ الْمُنِيَّةِ فِي كُلِّ وَادٍ^٤
وَيَصْرِفُ لِلْكَوْنِ مَا فِي يَدَيْهِ ، وَمَا الْكَوْنُ إِلَّا نَذِيرُ الْفَسَادِ
لَقَدْ عَشَرَ الدَّهْرُ بِالسَّابِقِينَ ، وَلَمْ يُعْجِزِ الْمَوْتَ رَكْضُ الْخَوَادِ
لَعَمْرُكَ مَا رَدَّ رَيْبَ الرَّدَى أَرِيبٌ ، وَلَا جَاهِدٌ بِاجْتِهَادِ
سِيَاهُ الْمَنَايَا تُصِيبُ الْفَتَى ، وَلَوْ ضَرَبُوا دُونَهُ بِالْسُّدَادِ
أَصْبَنَ ، عَلَى بَطْشِهِمْ ، جُرْهُمًا ، وَأَصْمَيْنَ ، فِي دَارِهِمْ ، قَوْمَ عَادِ

١ طرفاً : فرساً كريماً ، منصوب على الحال . ما تريم : أي ما تركه .

٢ نفسه : همته . ورواية يتيمة الدهر : تأخر سعيه . لحاقها : الضمير يعود إلى المنى ، في البيت السابق .

٣ نزحت : نفد ماؤها . جمد : جمع جمده بفتح فسكون ، بمعنى جامد ، سمي بالمصدر .

٤ في كل واد : إشارة إلى المثل السائر : بكل واد بنو سعد . قيل إن الأصبط بن قريع السعدي تحول عن قوم ، وانتقل في القبائل ، فلما لم يجد جوارهم رجع إلى قومه ، وقال المثل .

٥ يصره : يفلته ، ويجعله ينصرف ، أو هو بمعنى ينفقه .

وَأَقْعَصْنَ كَلْبًا عَلَى عِزِّهِ ، فَمَا اعْتَزَّ بِالصَّافِنَاتِ الْجِيَادِ^١

إِلَى أَنْ انْتَهَيْتُ فِيهَا إِلَى قَوْلِي :

وَلَكِنِّي خَانَتِي مَعَشَرِي ، وَرُدْتُ بِقَاعًا وَبَيْلَ الْمَرَادِ^٢

وَهَلْ ضَرَبَ السَّيْفُ مِنْ غَيْرِ كَفٍّ ؟ وَهَلْ ثَبَتَ الرَّأْسُ فِي غَيْرِ هَادٍ^٣ ؟

فَقَالَ : زِدْنِي مِنْ رِثَائِكَ وَتَحْرِيطِكَ ، فَأَنْشَدْتُهُ :

أَفِي كُلِّ عَامٍ مَصْرَعٌ لِعَظِيمٍ ؟ أَصَابَ الْمَنَابَا حَادِي وَقَدِيمِي

هَوَى قَمَرًا قَيْسِ بْنِ عَيْلَانَ أَنْفًا ، وَأَوْحَشَ مِنْ كَلْبٍ مَكَانُ زَعِيمٍ^٤

فَكَيْفَ لِقَائِي الْحَادِثَاتِ إِذَا سَطَّتْ ، وَقَدْ قُلَّ سَيْفِي مِنْهُمْ وَعَزِيمِي ؟

وَكَيْفَ اهْتِدَائِي فِي الْخُطُوبِ إِذَا دَجَّتْ ، وَقَدْ فَقَدْتُ عَيْنَايَ ضَوْءَ نُجُومٍ ؟

مَضَى السَّلَفُ الْوَضَّاحُ إِلَّا بِقَبِيَّةٍ ، كَغُرَّةِ مُسَوْدٍ الْقَمِيصِ بِبَهِيمٍ^٥

١ أقعصن : قتلن . كلب : هو كلب بن وبرة أبو قبيلة يمانية مشهورة . الصافنات : صفة الخيول إذا قامت على ثلاث قوائم ، وطرف حافر الراحلة .

٢ ردت ، من راد : طلب الكلاء . اليفاع : التل . وبيل : وخيم المرعى . المراد : الموضع الذي يطلب فيه الكلاء .

٣ الهادي : المنق .

٤ قيس بن عيلان : صوابه قيس عيلان ، وهو أبو قبيلة مضرية مشهورة ، وعيلان اسم فرسه ، مضاف إليه ، واسم قيس الناس بن مضر ، وأخوه إلياس المعروف باسم خندف ، والمراد بالقمرين قيس وخندف .

٥ النرة : ليلة استهلال القمر ، ومن الهلال طلعت . مسود القميص : أي الليل . البهيم : الأسود . هذه القصيدة قالها في رثاء أبي عبيدة حسان بن مالك بن أبي عبيدة ، وزير عبد الرحمن بن هشام أيام الفتنة .

ومنها :

رَمَيْتُ بِهَا الْآفَاقَ عَنِّي غَرِيبَةً ، نَتِيجَةَ خَفَاقِ الضُّلُوعِ كَظِيمِ
لَأُبْدِي إِلَى أَهْلِ الْحِجَى مِنْ بَوَاطِنِي ، وَأُدْلِي بِعُنُرِي فِي ظَوَاهِرِ لُؤْمِ
أَنَا السَّيْفُ لَمْ تَتَعَبْ بِهِ كَفٌّ ضَارِبٍ ، صَرُومٌ إِذَا صَادَقَتْ كَفٌّ صَرُومِ
سَعَيْتُ بِأَحْرَارِ الرِّجَالِ ، فَخَانَتَنِي رِجَالٌ ، وَلَمْ أَنْجِدْ بِجِدٍّ عَظِيمِ
وَضَيَّعَنِي الْأُمْلَاكُ بَدْءَ أَعْوَدَةٍ ، فَضِيعْتُ بِدَارٍ مِنْهُمْ وَحَرِيمِ

فَقَالَ : إِنْ كُنْتَ وَلَا بُدَّ قَائِلًا ، فَإِذَا دَعْنِكَ نَفْسُكَ إِلَى الْقَوْلِ فَلَا
تَكُذِّبْ قَرِيبَتَكَ ، فَإِذَا أَكْمَلْتَ فَجَمَامُ ثَلَاثَةٍ^١ لَا أَقْلَ^٢ . وَنَقَحَ بَعْدَ ذَلِكَ ،
وَتَذَكَّرَ قَوْلَهُ^٣ :

وَجَشَّعَنِي خَوْفُ ابْنِ عَمَّانَ رَدَّهَا ، فَتَقَفْتُنْهَا حَوْلًا كَرِيبًا وَمَرَبَعًا^٤
وَقَدْ كَانَ فِي نَفْسِي عَلَيْهَا زِيَادَةٌ ، فَلَمْ أَرَ إِلَّا أَنْ أُطِيعَ وَأُسَمَّا
وَمَا أَنْتَ إِلَّا مُحْسِنٌ عَلَى إِسَاءَةِ زَمَانِكَ . فَقَبِلْتُ عَلَى رَأْسِهِ ، وَغَاصَ
فِي الْعَيْنِ .

١ اسوم : مخفف اللؤم .

٢ فجمام ثلاثة : أي فراحة ثلاثة أيام .

٣ قوله . أي قول سويد بن كراع العكلي ، وهو شاعر أموي هجا بعض قومه ، فاستعدوا عليه
سميد بن عثمان بن عفان ، فطلبه ليضربه ويحبسه ، فهرب منه ولم يزل متوارياً حتى عفا عنه .

٤ ردها : التصير لقصيدة الهجاء . حول كريت : ستة تامة . المربع : الموضع يقيمون فيه أيام
الربيع ، والمراد هنا مدة الإقامة فيه . ورواية الأغاني : ورعيتها صيفاً جديداً ومربعا .

صاحب البحري

ثم قال لي زهير : من تريد بعده ؟ قلت : صاحب أبي نؤاس ؛ قال : هو بدير حنة^١ منذ أشهر ، قد غلبت عليه الخمر ، ودبر حنة في ذلك الخيل . وعرضه علي ، فإذا بيننا وبينه فراسيخ . فركضنا ساعةً وجزنا في ركضنا بقصر عظيم قد أمه ناورد^٢ يتطارد فيه فرسان ، فقلت : لمن هذا القصر يا زهير ؟ قال : لطوق بن مالك ؛ وأبو الطبع صاحب البحري في ذلك الناورد ، فهل لك في أن تراه ؟ قلت : ألف أجل ، إنه لمن أساتيذي ، وقد كنت أنسيته . فصاح : يا أبا الطبع ! فخرج إلينا فتى على فرس أشعل^٣ ، وبيده قناة ، فقال له زهير : إنك مؤتمنا ؛ فقال : لا ، صاحبك أشمخ مارنا^٤ من ذلك ، لولا أنه ينقصه . قلت : أبا الطبع على رسلك ، إن الرجال لا تسكال بالقفران^٥ . أنشدنا من شعرك . فأنشد :

-
- ١ دير حنة : دير بظاهر الكوفة ، كان يزوره أبو نؤاس ، ويأوي إلى الحانات القريبة منه ، وقد ذكره غير مرة في خمرياته . وهو هنا في أرض الجن يأوي إليه شيطان شعر الحمرة .
 - ٢ ناورد : فارسي الأصل ، يراد به ميدان أو ملعب للخيل والبهلوان ، وربما أطلق على ضرب من المحاربة على الخيول وقهر الخصم ، ذكره دوزي في معجمه .
 - ٣ الأشعل ، من الخيل : ما كان في ذنبه والناسية والقدال بياض .
 - ٤ مؤتمنا : أي نائم بك .
 - ٥ مارنا : أنفاً .
 - ٦ القفران : جمع القفيز ، وهو مكيال .

ما على الركب من وقوف الركاب^١

حتى أكملها ، ثم قال : هات إن كنت قلت شيئاً . فأنشدته :

هذه دار زينب والرباب

حتى انتهت فيها إلى قولي :

وارتكضنا حتى مضى الليل يسعى ، وأتى الصبح قاطع الأسباب^٢
فكان النجوم في الليل جيش^٣ دخلوا للكئون في جوف غاب
وكان الصباح قانص طير قبضت كفه برجل غراب^٤
وفنؤ سرّوا وقد عكف اللي^٥ ل وأرخی مغدودن^٥ الأطناب^٥
وكان النجوم لما هدتهم أشرقت لليون من آداب^٥
يتقرّون جواز كل فلاة ، جنح ليل ، جواؤه من ركابي^٥
عن ذكرى لدلجهم ، فتاهوا من حديثي في عرض أمر عجاب^٥
هيمه في السماء تسحب ذبلاً ، من ذيول العلى ، وجد كاب^٥

١ هذا مطلع قصيدة للبحرّي ، وتامه : في مفاتي الصبي ورسم الصابي .

٢ الأسباب : الحبال ، والمراد حبال التلاقي .

٣ الفتى : جمع فتى . وأرخی : رواية يتيمة الدهر : وأقى . المغنودن : الناعم المثني .

٤ أجوز : أنوسط الجوزاء : برج في وسط السماء . وكابي : في الأصل ركاب ، والتصحيح من يتيمة الدهر .

٥ العرض : الجانب .

ولو أن الدنيا كريمةٌ نجري . لم تكن طعمةً لفرسِ الكلابِ
جيفةً انتنتَ قطارَ إليها ، من بني دهرها ، فإرخُ الذبابِ
ومنها ٢ :

من شهيدٍ في سيرها ، ثم من أشدَّ جعٍ في السرِّ من لبابِ اللبابِ ٣
خطباءِ الأنام ، إن عنَّ خطبٌ ، وأعريبُ في متونِ عرابِ
حتى أكلتها . فكأنما غشَّى وجهَ أبي الطَّبعِ قطعةٌ من الليل . وكرَّ راجعاً
إلى ناورده دون أن يسلم . فصاح به زهير : أجزته ؟ قال : أجزته ، لا
بورِكَ فيك من زائر ، ولا في صاحبك أبي عامر !

صاحب أبي نواس

فصرب زهير الأدهم بالسوط ، فسار بنا في قننه ، وسيرنا حتى انتهينا
إلى أصل جبلٍ دبر حنة ، فشقَّ سمعي قرعُ النواقيس ، فصيحْتُ :
من منازلِ أبي نواس ، وربُّ الكعبةِ العلياء ! وسيرنا فجتأبُ أدياراً وكنائسَ

١ النجر : الأصل . الفرس : الأفراس ، وكل قتل . ورواية اليتيمة : لبرص ، جمع أبرص .

٢ في الأصل : ومنها يفتخر .

٣ السر : الأصل ومحض النسب وأفضله .

٤ العراب : الخيول العربية الكريمة ، السالة من الهجنة .

٥ القنن : سنن الطريق ، أي نهجه ، في الأصل : قننه ، وهو تصحيف .

وحانات ، حتى انتهينا إلى ديرٍ عظيمٍ تَعَبَقُ رَوَائِحُهُ ، وَتَصَوُّكُ نَوَافِحِهِ .
فوقف زهير ببابه وصاح : سلامٌ على أهل دير حنّة ! فقلتُ لزهير : أوّهل
صِرْنَا بذات الأُكْبَرِاح^٢ ؟ قال : نعم . وأقبلتُ نحونا الرَّهَابِيّين ، مُشَدَّدَةً^٣
بالزنانير ، قد قَبَضَتْ على العكاكيز ، بِيضَ الحَوَاجِبِ واللّحَى ، إذا نظروا
إلى المرء استَحْيَا ، مُكْثِرِينَ لِلتَّسْبِيحِ ، عَلَيْهِم هَدْيُ الْمَسِيحِ . فقالوا : أَهْلًا
بكَ يَا زهير من زائر ، وبصاحبِكَ أَبِي عامر ! مَا بُغِيَّتُكَ ؟ قال : حُسَيْنُ
الدُّنَانِ . قالوا : إِنَّهُ لَفِي شَرْبِ الْحَمْرَةِ ، مِنْذُ أَيَّامِ عَشْرَةٍ ، وَمَا نُرَاكُمَا
مُنْتَفِعَيْنِ بِهِ . فقال : وعلى ذلك^٤ . وَنَزَلْنَا وَجَأَوْا بِنَا إِلَى بَيْتٍ قَدْ اصْطَفَتْ
دِنَانُهُ ، وَعَكَفَتْ غِزْلَانُهُ ، وَفِي فُرْجَتِهِ شَيْخٌ طَوِيلُ الْوَجْهِ وَالسَّبِيلَةِ^٥ ، قَدْ
افْتَرَشَ أَضْغَاثَ زَهْرٍ ، وَاتَّكَأَ عَلَى زِقِّ خَمْرٍ ، وَيَدُهُ طَرَجْهَارَةٌ^٦ ، وَحَوَالِيهِ
صِبْيَةٌ كَأَطْطَبٍ تَعْطُو إِلَى عَرَاةٍ^٧ . فصاح به زهير : حَيَّاكَ اللَّهُ أَبَا الْإِحْسَانِ !
فجوابَ بجوابٍ لَا يُعْقَلُ لَغَلْبَةِ الْحَمْرِ عَلَيْهِ . فقال لي زهير : اقْرَعْ أُذُنَ

١ تصوك : تعبق .

٢ ذات الأُكْبَرِاح : هو دير حنّة . الأُكْبَرِاح : تصغير أكرّاح ، مفردهما كرج بالكسر ، وهي
لفظة سريانية ، معناها الكوخ الصغير يكون حول الدير ، ويسكنه الراهب الذي لا قلاية له ،
واللفظة وردت في شعر أبي نواس .

٣ وعلى ذلك : أي وعلى ذلك تزيده ، أو ما أشبه .

٤ السبّة : ما على الشارب من شعر .

٥ الطرجهارة : شه كأس يشرب فيه .

٦ أطب : جمع ظبي .

٧ تعطو : ترفع رؤوسها إلى الشجر لتتناول منها . العراة : واحدة العرار ، وهو ثوب ناعم
أصفر طيب الرائحة .

نشوته بإحدى خمرياتك ، فإنه ربما تنبه لبعض ذلك . فصحت أنشد من
كلمة لي طويلة :

ولرب حان قد أدرت بديره خمر الصبا مزجت بصقور خموره^١
في فتية جعلوا الزقاق تكاءهم ، متصاعرين تخشعا^٢ لكبيره^٣
والى علي بطرفه وبكفه ، فأمال من رأسي لعب كبيره^٣
وترنم الناقوس عند صلاتهم ، ففتحت من عيني لرجع هديره
يؤدي إلينا الراح كل معصفر^٤ ، كالخشف خفّره^٥ التماح خفيره^٤

فصاح من حبال نشوته : أشجعي ؟ قلت : أنا ذاك ! فاستدعى ماء
قراحا ، فشرّب منه وغسل وجهه ، فأفاق واعتذر إليّ من حاله . فأدركتني
مهابته ، وأخذت في إجلاله لمكانه من العلم والشعر . فقال لي : أنشد ،
أو حتى أنشدك ؟ فقلت : إن ذلك لأشدّ لنا نسي ، على أنه ما بعدك لمحسن
إحسان . فأنشد :

يا دير حنة من ذات الأكبراح ، من يصح عنك فلإني لست بالصّاحي^٥

١ حان : في الأصل : خان .

٢ التكاء : أراد به المتكأ أي موضع اتكائهم ، وهو غير وارد . كبيره : كبير الدير ، أي عظيمه
ورئيسه .

٣ كبيره : أي القلح الكبير .

٤ كن معصفر : أي كل ذي معصفر ، أي ثوب مصبوغ بالمعصفر ، وهو نبت يصنع به صمغ
أصفر . خفّره : أي جعله يحمر حياء . الخفير : الحامي والمحافظ .

٥ هذه الأبيات لأبي نواس في وصف رهبان دير حنة .

يَعْتَادُهُ كُلُّ مَحْفُوفٍ مَقَارِقُهُ مِنْ الدَّهَانِ ، عَلَيْهِ سَحَقُ أَسَاحٍ^١
لَا يَدْلِفُونَ إِلَى مَاءِ بَانِيَةٍ ، إِلَّا اغْتِرَافًا مِنَ الْغُدْرَانِ بِالرَّاحِ

فَكَدْتُ وَاللَّهِ أَخْرُجُ مِنْ جِلْدِي طَرَبًا . ثُمَّ أُنْشَدَ :

طَرَحْتُمْ مِنَ التَّرْحَالِ أَمْرًا فَعَمْنَا^٢

وَأُنْشَدَ أَيْضًا :

لِيَمَنْ دِمَنْ تَزْدَادُ طَيِّبَ نَسِيمٍ ، عَلَى طُولِ مَا أَقْوَتْ ، وَحُسْنَ رُسُومٍ^٣
تَجَانِي الْبَيْلَ عَنْهُمْ حَتَّى كَأَنَّمَا لَيْسَنَ ، مِنَ الْإِقْوَاءِ ، ثَوْبَ نَعِيمٍ^٤

وَاسْتَمَرَ فِيهَا حَتَّى أَكْمَلَهَا . ثُمَّ قَالَ لِي : أُنْشِدْ . فَقُلْتُ : وَهَلْ أَبْقَيْتَ
لِلْإِنْشَادِ مَوْضِعًا ؟ قَالَ : لَا بُدَّ لَكَ ، وَأَوْعِثْ بِي وَلَا تُنْجِدْ . فَأَنْشَدْتُهُ :

أَصْبَحُ شَيْمَ أُمِّ بَرَقٍ بَدَا ، أَمْ سَنَا الْمَحْبُوبِ أَوْرَى أَرْزُودًا^٥

-
- ١ يعتاده : يثأبه . المحفوف : البعيد العهد بالدهان . الدهان : العليب . السحق : الثوب البالي .
الأساح : جمع مسح بالكسر ، وهو ثوب من شعر يلبسه الرهبان .
٢ أمراً : في ديوان أبي نواس : ذكرأ . وتعام البيت : فلو قد شخصم صبح الموت بعضنا .
٣ طول : في الأصل طيب ، والتصحيح عن الديوان . أقوت : أحسن رسوم ، مكانها
في الديوان موضع طيب نسيم ، وهذه مكانها موضع حسن رسوم .
٤ الإقواء : خلو الدار ، وقوله من الإقواء : رواية الديوان : على الإقواء .
٥ أوعث : أي سر في المكان السهل . لا تنجد : لا تضر في النجد ، أي المكان المرتفع .
٦ أصبح : في الأصل : أصفح ، والتصحيح عن مطمح الأنفس للفتح بن خاقان . شيم : من شام ،
أي نظر .

هَبَّ مِنْ مَرَقَدِهِ مُنْكَسِرًا ، مُسْبِلًا لِّلْكُمِّ ، مُرْخٍ لِّلرُّدَا
بِمَسْحِ النَّعْسَةِ مِنْ عَيْنِي رَشًا ، صَائِدٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَسَدًا
قُلْتُ : هَبْ لِي يَا حَبِيبِي قُبْلَةً ، تَشْفِ مِنْ عَمَلِكَ تَبْرِيحَ الصَّدَى
فَانْتَنَى يَهْتَزُّ مِنْ مَتَكِبِهِ ، قَائِلًا : لَا ! ثُمَّ أَعْطَانِي الْيَدَا
كُلَّمَا كَلَّمَتْنِي قَبْلَتُهُ ، فَهَوَّ إِمَّا قَالَ قَوْلًا رَدَدَا
كَادَ أَنْ يَرْجِعَ ، مِنْ لُثْمِي لَهُ وَارْتِشَافِي الثَّغْرِ مِنْهُ ، أَدْرَدَا
قَالَ لِي يَلْعَبُ : خَذْ لِي طَائِرًا ، فَتَرَانِي الدَّهْرَ أَجْرِي بِالْكُدَى
وَإِذَا اسْتَنْجَزْتُ يَوْمًا وَعْدَهُ ، قَالَ لِي يَمْطُلُ : ذَكَّرَنِي غَدَا
شَرِبْتُ أَعْطَانِي خَمْرَ الصَّبَا ، وَسَقَاهُ الْحُسْنُ حَتَّى عَرَبَدَا
وَإِذَا بَتُّ بِهِ ، فِي رَوْضَةٍ ، أَغْبَدَا يَعْزُرُونَ نَبَاتًا أَغْبَدَا
قَامَ فِي اللَّيْلِ بِجِيدٍ أَتْلَعَ ، يَنْفُضُ اللَّيْمَةَ مِنْ دَمْعِ النَّدَى
رَشًا ، بَلْ غَادَةٌ مَمْكُورَةٌ ، عَمَّتْ صُبْحًا بِلَيْلٍ أَسْوَدَا
أَحَحَّتْ مِنْ عَضَّتِي فِي نَهْدِهَا ، ثُمَّ عَضَّتْ حُرًّا وَجْهِي عَمْدَا

١ من عمك : في الأصل : من غمك ، والتصحيح عن مطمح الأنفس . الصدى : العطن .

٢ الأدود : من ذهب أسنانه .

٣ الكدى : جمع الكدية ، وهي الأرض الصلبة الغليظة . والجري بالكدى يراد به الفخر والنجاح .

٤ يمر : يقصد . في مطمح الأنفس : يقرؤ ، أي يقصد ويتتبع . الأغيد : من مالت عنقه ، ولانت أعطانه ، ومن النبات الناعم المتشبي .

٥ المكمورة : المدبجة الخلق والمستديرة الساقين .

٦ أححمت : أي قالت : أح ، حكاية صوت .

فأنا المجروحُ مِنْ عَصَتِيهَا ، لا شَقَانِي اللهُ مِنْهَا أَبَدًا !
 فلَمَّا انتهيتُ قال : اللهُ أنت ! وإنْ كان طبعُكَ مخنَّعاً منك . ثمَّ قالَ
 لي : أنشِدْني من رِثائِكَ شيئاً . فأنشدته من قولي في بُنْيَةِ صغيرة :
 أبِها المَعْتَدُ في أهلِ النُهَى ، لا تَدُوبُ ، إنَّ رَفقيدَ ، وَلَهَا
 حتى انتهيتُ إلى قولي :
 وإذا الأُسْدُ حَمَتْ أغْيَالَهَا ، لم يَضُرَّ الخَيْسَ صَرَعاتُ المَهَا^١
 وغَرِيبٌ يا ابنَ أَمَمارِ العُلا ، أن يُرَاعَ البَدْرُ مِنْ فَقْدِ السُّها
 فلَمَّا انتهيتُ قال لي : أنشِدْني مِنْ رِثائِكَ أشَدَّ منْ هذا وأفصح .
 فأنشدته مِنْ رِثائي في ابنِ ذِكْوَانِ^٢ . ثمَّ قال : أنشِدْني جَحْدَرِيَّتَكَ^٣
 مِنْ السَّجَنِ ، فأنشدته :

١ الخيس : عرين الأسد ، كالليل .

٢ هو القاضي ابن ذكوان رثاء ابن شهيد بقصيدة أولها :

ظننا الذي نادى محمداً بموته ، لعظم الذي أنجى من الرزء ، كاذبا

٣ جحدريتك : نسبة إلى جحدر ، وهو رجل من بني جشم بن بكر كان يخيف السبيل بأرض اليمن ، فبلغ خبره الحجاج ، فشدد في طلبه حتى ظفر به ، فأمر بحبسه ، فحبس . فنظم في سجنه قصيدة جميلة يري بها نفسه ، ويحن إلى بلاده ، ويستعطف الحجاج بقوله :

أحاذر صولة الحجاج ظلماً ، وما الحجاج ظلام لجان

فبلغ شعره الحجاج ، فأحضره بين يديه ، وقال : أيما أحب إليك ، أن أقتلك بالسيف ، أو ألقيك لسباع ؟ فقل : أعطني سيفاً ، وألقني لسباع . فأعطاه سيفاً ، وألقاه إلى أسد مجوع ، فزأر الأسد ، وتلقاه جحدر بالسيف فقلق هامته . فأصيب به الحجاج ، وأكرمه وجعله من أصحابه .

قَرِيبٌ بِمُحْتَلِّ الهَوَانِ بَعِيدٌ^١

حتى انتهيتُ فيها إلى قولي :

فإن طالَ ذكرِي بالمُجُونِ فإتني شَقِيٌّ بِمَنْظُومِ الكلامِ سَعِيدٌ
 وهل كنتُ في العُشاقِ أوَّلَ عاشِقٍ ، هَوَتْ بِحِجَاهِ أَعْيُنٌ وَخُدُودٌ ؟^٢
 فَمَنْ مُبْلِغُ الْفَتِيَانِ أَنْتِي بَعْدَهُمْ مُقِيمٌ بِدَارِ الظَّالِمِينَ طَرِيدٌ^٣
 ولستُ بذِي قَيْدٍ يَرِقُّ ، وإنما عَلَى اللَّحْظِ مِنْ سُخْطِ الإمامِ قَبِيدٌ^٤

فبكى لها طويلاً . ثم قال : أنشدني قطعةً من مجونيك ، فقد بعدَ عهدي
 بمثلِك . فأنشدته :

وفاظِرَةٌ تَحْتَ طَيِّ القِنَاعِ ، دعاها إلى الله والخيرِ داعٍ
 سَعَتْ يَابِسُهَا تَبْنُغِي مَزَلًا ، لِيَوْصَلَ النَّبْتُ وَالْإِنْقِطَاعُ
 فجاءتُ تَهَادَى كَيْلَ الرُّؤُومِ ، تُرَاعِي غَزَالَاً بِأَعْلَى بَقَاعٍ^٥

١ تمام البيت عن مطمح الأنفس : يهود ، ويشكو حزنه ، فيجيد .

٢ أول عاشق : في مطمح الأنفس : أول عاقل .

٣ طريد : في المطمح : وحيد .

٤ يرق : في المطمح : يرث .

٥ قال الفتح بن خاقان في المطمح ما ملخصه : قدم الوزير أبو عامر بن شهيد بياب الصومعة من الجامع في لمة من الإخوان ، فمرت جارية من أعيان أهل قرطبة ، معها من جواربها من يسترها ويواربها ، وهي ترتاد موضعاً لمناجاة ربها ، منتقبة خائفة ممن يرقها ، وأمامها طفل لها ، فلما وقعت عينها على أبي عامر ، ولت سريمة خيفة أن يشبب بها ، أو يشهرها باسمها ، فلما نظرها قل هذه الأبيات ، ففضضها بها وشهرها .

٦ الرؤوم : العاطفة على ولدها ، والمراد بها الطيبة . بأعلى يقاع : في نفح الطيب : بروض البقع .

أَتَعْنَا تَبَخَّرُ فِي مَشْيِهَا ، فَحَلَّتْ بِوَادٍ كَثِيرِ السُّبَاعِ
وَرِيَعَتْ حِدَاراً عَلَى طِفْلِهَا ، فَتَادَيْتُ : يَا هَذِهِ لَا تُرَاعِي !
فَوَلَّتْ وَلِلْمِسْكِ مِنْ ذَيْلِهَا ، عَلَى الْأَرْضِ ، خَطُّ كَظْهِرِ الشُّجَاعِ ١

فلما سمع هذا البيت قام يرقص به ويردده ، ثم أفاق ، ثم قال : هذا
والله شيء لم نلهمه نحن . ثم استدانني فدكوت منه فقيل بين عيني ، وقال :
اذهب فإنتك مجاز . فانصرفنا عنه وانحدرنا من الجبل .

صاحب أبي الطيب

فقال لي زهير : ومن تريد بعد ؟ قلت له : خاتمة القوم صاحب أبي
الطيب ، فقال : اشدُّدْ له حيازيمك ٢ ، وعطر له نسيمك ، وانثر عليه
نجومك . وأمال عينان الأدھم إلى طريق ، فجعل يركض بنا ، وزهير
يتأمل آثار فرس لحنائها هناك . فقلت له : ما تتبعك لهذه الآثار ؟ قال :
هي آثار فرس حارثة بن المغلس صاحب أبي الطيب ، وهو صاحب قنص .
فلم يزل يقرأها حتى دفعنا إلى فارس على فرس بيضاء كأنه قنص على

١ لشعاع : ذكر الحية .

٢ الحيازيم : سمع الحيزوم ، وهو ما استدار بالظهر واليطن ، يقال : شد للأمر حيازيمه ، أي
استعد له وتبأ .

٣ دفعنا : أي دفعنا فرسنا ، اصطلاحوا في هذا الفعل على حذف المفعول .

كَتِيب ، وَيَدَهُ قَنَاقَةٌ قَدْ أَسْنَدَهَا إِلَى عُنُقِهِ ، وَعَلَى رَأْسِهِ عِمَامَةٌ حَمْرَاءُ
 قَدْ أُرْخِيَ لَهَا عَدَبَةً^١ صَفْرَاءُ . فَحَيَّاهُ زُهَيْرٌ ، فَأَحْسَنَ الرَّدَّ نَازِئاً مِنْ مَقْلَةٍ
 شَوْسَاءٍ^٢ ، قَدْ مَلِئَتْ تَيْباً وَعُجْباً . فَعَرَفَهُ زُهَيْرٌ قَصْدِي ، وَأَلْقَى إِلَيْهِ رَغْبَتِي .
 فَقَالَ : بَلَعَنِي أَنَّهُ يَتَنَاوَلُ^٣ ؛ قُلْتُ : لِلضَّرُورَةِ الدَّافِعَةِ ، وَإِلَّا فَالْقَرِيحَةُ غَيْرُ
 صَادِعَةٍ^٤ ، وَالشَّفَرَةُ غَيْرُ قَاطِعَةٍ . قَالَ : فَأَنْشِدْنِي ؛ وَأَكْبَرْتُهُ أَنْ أُسْتَنْشِدَهُ ،
 فَأَنْشَدْتُهُ قَصِيدَتِي الَّتِي أَوَّلُهَا :

أَبْرَقُ* بَدَا أَمْ لَمَعُ أَبْيَضَ قَاصِلٍ*

حَتَّى انْتَهَيْتُ فِيهَا إِلَى قَوْلِي :

تَرَدَّدَ فِيهَا الْبَرَقُ حَتَّى حَسِبْتُهُ يُشِيرُ إِلَى نَجْمِ الرَّبِيِّ بِالْأَنَامِلِ
 رَبِّي نَسَجَتْ أَيْدِي الْغَمَامِ لِلْبَسِيهَا غَلَّائِلَ صُفْرًا ، فَوْقَ بَيْضِ غَلَّائِلِ
 سَهَرْتُ بِهَا أَرْمَى النَّجُومَ وَأَنْجُمًا طَوَالِجَ لِلرَّاعِيَيْنِ ، غَيْرَ أَوَافِلِ^٥
 وَقَدْ فَغَرْتُ فَاها بِهَا كُلُّ زَهْرَةٍ ، إِلَى كُلِّ ضَرْعٍ لِلْغَمَامَةِ حَافِلِ
 وَمَرَّتْ جُبُوشُ الْمَزْنِ رَهَوًّا ، كَأَنَّهَا عَسَاكِرُ زَنْجٍ مُذْهَبَاتُ الْمَنَاصِلِ^٦

١ العذبة : طرف الصامة يسيل من خلفها .

٢ مقلة شوساء : أي حين ناظرة بمؤخرها تكبراً ، أو ثنيلاً .

٣ يتناول : أي يأخذ عن غيره ، أو يأخذ الأشياء القريبة المنال .

٤ قريحة صادعة : أي قاطعة أو مشرقة نيرة .

٥ قاصل : قاطع ، وتمام البيت عن اليتيمة : ورجع شدا ، أم رجع أشقر صاهل .

٦ وأنجماً : أي أنجم زهر الربى ، من أصفر وأبيض .

٧ رهوًّا : أي متتابعة .

وَحَلَقَتِ الْخُضْرَاءُ فِي غُرِّ شُهُبِهَا ،
تَخَالُ بِهَا زُهُرَ الْكَوَاكِبِ نَرَجِيسًا ،
وَتَلْمَحُ مِنْ جَوَازِيئِهَا فِي غُرُوبِهَا
وَتَحْسَبُ صَقْرًا وَاقِعًا دَبْرَانِهَا ،
وَبَدَرَ الدُّجَى فِيهَا غَدِيرًا ، وَحَوْلَهُ
كَانَ الدُّجَى مَمًى ، وَدَمَعِي نُجُومُهُ ،
هَوَتْ أَنْجُمُ الْعَلْيَاءِ إِلَّا أَقْلَهَا ،
وَأَصْبَحَتْ فِي خَلْفٍ إِذَا مَا لَمَحْتَهُمْ
وَمَا طَابَ فِي هَذِي الْبَرِيَّةِ آخِرٌ ،
أَرَى حُمْرًا فَوْقَ الصَّوَاهِلِ جَمَّةً ،
وَرُبَّتْ كِتَابٍ إِذَا قِيلَ : زُورُوا ،
وَنَاقِلٍ فِيهِ لَمْ يَرَ اللَّهُ قَلْبُهُ ،
وَحَامِلٍ رُمُحٍ رَاحَ ، فَوْقَ مَضَائِيهِ ،

كَلْجَةً بَحْرِ كَلَلَتْ بِالْيَعَالِلِ^١
عَلَى شَطِّ وَادٍ لِلْمَجَرَّةِ سَائِلِ
تَسَاقَطَ عَرْشٍ وَاهِنِ الدَّعَمِ مَائِلِ
يَعُشُّ الثَّرِيًّا فَوْقَ حُمْرِ الْخَوَاصِلِ^٢
نُجُومٌ كَطَلْعَاتِ الْحَمَامِ النَّوَهِلِ
تَحْدَرُ لِشِفَاقًا لِدَهْرِ الْأَرَاذِلِ^٣
وَغِبْنِ بِمَا يَحْظِي بِهِ كُلُّ عَاقِلِ
تَبَيَّنْتُ أَنَّ الْجَهْلَ إِحْدَى الْفَضَائِلِ^٤
إِذَا هُوَ لَمْ يُنْجَدْ بِطِيبِ الْأَوَائِلِ
فَأَبْكِي بَعِيَّتِي ذُلٌّ تِلْكَ الصَّوَاهِلِ^٥
بَكَتْ مِنْ تَأْنِيهِمْ صُدُورُ الرِّسَائِلِ^٦
يَظُنُّ أَنَّ الدِّينَ حِفْظُ الْمَسَائِلِ
بِهِ كَاعِبًا فِي الْحَيِّ ذَاتَ مَغَازِلِ^٧

١ الخضراء : السماء . اليعال : جمع يعلول ، وهو السحاب الأبيض ، أو القطعة منه .

٢ الدبران : منزل للقمر ، مشتمل على خمسة كواكب في برج الثور . الخواصل : جمع حوصلة ، وهي من الطائر بمنزلة المعدة للإنسان ، وفيها مراعاة النظير لمش الثريا .

٣ إشفاقًا : خوفًا وشفقة .

٤ احيف بالتسكين : بمعنى الخلف بالتحريك ، ولكنها تختص بخلف السوء .

٥ حمرًا : جمع حمار ، والمراد فرسان كالحمر .

٦ زوروا : يقال زور الحديث : ثقفه وأزال زوره أي أعوجاجه ، والثبي قومه وحسنه

٧ الكاعب : الجارية تنأى نهدها . والمراد أن حامل الرمح يشبه جارية تحمل مغزلا .

حُبُّوا بَالْتِي دُونِي ، وَغُودِرْتُ دُونَهُمْ أُرُودُ الْأَمَانِي فِي رِيَاضِ الْأَبَاطِيلِ
وما هي إِلَّا هِمَّةٌ أَشْجَعِيَّةٌ ، وَتَنْفُسٌ أَبَتْ لِي مِنْ طِلَابِ الرِّذَائِلِ
وَقَهْمٌ لَوْ الْبِرْجِيسُ جِئْتُ بِجَدِّهِ ، إِذَا لَتَلَقَّانِي بِنَحْسِ الْمُقَاتِلِ^١
وَلَمَّا طَمَأ بِحَرِّ الْبَيَانِ بِفِكْرَتِي ، وَأَغْرَقَ قَرْنَ الشَّمْسِ بَعْضُ جِدَاوِلِي
رَحَلْتُ إِلَى خَيْرِ الْوَرَى كُلِّ حُرَّةٍ مِنْ الْمَدْحِ ، لَمْ تَخْمُلْ بِرْعِي الْخَمَائِلِ^٢
وَكِدْتُ لِفَضْلِ الْقَوْلِ أُبْلَغُ سَاكِتًا ، وَإِنْ سَاءَ حُسَادِي مَدَى كُلِّ قَاتِلِ

فَلَمَّا انْتَهَيْتُ قَالَ : أَنْشِدْنِي أَشَدَّ مِنْ هَذَا . فَأَنْشَدْتُهُ قَصِيدَتِي :

هَاتِيكَ دَارُهُمْ قَفِيفٌ بِمَعَانِيهَا^٣

فَلَمَّا انْتَهَيْتُ ، قَالَ لَزْهِيرُ : إِنْ امْتَدَّ بِهِ طَلَقُ الْعُمُرِ ، فَلَا بُدَّ أَنْ
يَنْفُثَ بَدْرَرُ ، وَمَا أَرَاهُ إِلَّا سَيُحْتَضِرُ ، بَيْنَ قَرِيحَةٍ كَالْخَمْرِ . وَهِمَّةٌ تَضَعُ
أَخْمَصَهُ عَلَى مَفْرِقِ الْبَدْرِ . فَقُلْتُ : هَلَّا وَضَعْتَهُ عَلَى صَلَعةِ النَّسْرِ !
فَاسْتَضْحَكَ إِلَيَّ وَقَالَ : أَذْهَبَ فَقَدْ أَجَزْتُكَ بِهِذِهِ النُّكْتَةِ . فَقَبَّلْتُ عَلَى رَأْسِهِ
وَانصَرَفْنَا .

١ البرجيس : المشتري ، وهو كوكب سعد . جده : حظه . المقاتل : أراد به المربخ ، وهو كوكب الحدة والحرب .

٢ رعي الخمائل : أراد به التكسب بالمدح .

٣ معانيها : منزلها . وتعام البيت : تجدد الدموع تجدد في هملانها .

٤ الطلق : النفاية ، والحبل المفتول ، وكلاهما صالح للمعنى .

٥ النسر : الطائر المعروف ، وكوكبان ، أحدهما النسر الواقع والآخر النسر الطائر ، وكلامه فيه تورية ، وفيه مجاز أيضاً ، فقوله صلعة النسر ، أي نسر الشعراء ، ويريد به صاحب المتنبي .

الفصل الثاني

نوابغ الكتاب

صاحبها الجاحظ وعبد الحميد

فقال لي زهير : مَنْ تريد بعده ؟ فقلت : ميلٌ بي إلى الخطباء ، فقد قضيتُ وطراً من الشعراء . فركضنا حيناً طاعنين في مَطْلَعِ الشمس ، ولقينا فارساً أسراً إلى زهير ، وانجزعَ عنا ، فقال لي زهير : جُمِعتُ لكَ خطباء الجينُ بمَرَجٍ دُهْمَانٍ ، وبيننا وبينهم فرسخان ، فقد كُفيتَ العناء إليهم على انفرادِهِمْ . قلت : لمَ ذاك ؟ قال : للفرقِ بين كلامَيْنِ اختلفَ فيه فِتْيَانُ الجينِ . وانتهينَا إلى المَرَجِ فإذا بنادٍ عظيم ، قد جمعَ كلَّ زعيم ، فصاح زهير : السلامُ على فُرسَانِ الكلام . فردُّوا وأشاروا بالنزُولِ . فأفترجوا حتى صيرنا مركزَ هالةِ مجلسِهِمْ ، والكلُّ منهم ناظرٌ إلى شيخٍ أصلع ، جاحظٍ العينِ اليُمْنَى ، على رأسِهِ قَلَنْسُوَةٌ بيضاء طويلة . فقلتُ ميراً لزهير : مَنْ ذلك ؟ قال : عَتْبَةُ

١ انجزعَ عنا : أي انقطعَ عنا .

ابن أرقم صاحب الجاحظ ، وكُنِيَّتُهُ أَبُو عَيْيَنَةَ . قلتُ : بأبي هو ! ليس
 رغبتُ سواه ، وغيرَ صاحبِ عبدِ الحميد . فقال لي : إنه ذلك الشيخُ الذي إلى
 جنبه . وعرفه صَعَوِي إليه^١ وقولي فيه . فاستدناني وأخذ في الكلام معي ، فصمت
 أهلُ المجلس ، فقال : إنك لخطيب ، وحائكٌ للكلام مُجِيد ، لولا أنك
 مُفَرِّى بالسَّجَع ، فكلامُك نظمٌ لا نثر .

فقلتُ في نفسي : قرعَكَ ، بالله ، بقارعتِهِ ، وجاءك بمُماثلَتِهِ^٢ . ثم
 قلتُ له : ليسَ هذا ، أعزَّكَ الله ، منِّي جهلاً بأمرِ السَّجَع ، وما في المماثلةِ
 والمقابلةِ^٣ من فَضْل ، ولكنِّي عدِمْتُ بيلدي فُرْسانَ الكلام ، ودُهيتُ بغباوةِ
 أهلِ الزمان ، وبالحِرَاءِ^٤ أن أحرَّكَهم بالازدواج . ولو فرشتُ للكلامِ فيهم
 طولقاً^٥ ، وتحركت لهم حركة مَشُومٍ^٦ ، لكان أرفعَ لي عندهم ، وأولجَ في
 نفوسِهِم .

١ صنوي إليه : مبلي إليه .

٢ المماثلة : هي أن تكون ألفاظ الفواصل والقرائن في الكلام المنشور متفقة في الوزن لا في لتقفية
 نحو : وآتيناهما الكتابَ المستبين ، وهديناهما الصراطَ المستقيم . أو قول الجاحظ : من مدحه
 بالخير والشر ، وبالحمد والذم ، حتى ذكر في القرآن مرة بالحمد ، ومرة بالذم .

٣ المقابلة : هي أن يؤتى بمتعدد من المتوافقات ، ثم يؤتى بما يقابله من الأضداد على الترتيب ، مثل
 قول الشاعر :

اذكي وأوقد للعداوة والقرى نارين : نار وغي ، ونار زناد

٤ بالحرا : يقال : بالحرا أن يكون ذلك ، أي بالخليق .

٥ الطوق : نبات .

٦ مشوم : لعله مشولين كمشوقين ، أي فتيان ، واحده مشول كمقعد ، كما في معجم دوزي ،
 وهو اصطلاح منربي ، أو لعله شوم ، إشارة إلى الرقية التي خدع النبي بها اللصوص في كيلة ودمة .

فقال : أهذا على تلك المناظر ، وكبر تلك المحابر ، وكمال تلك الطياليس ؟
قلتُ : نعم ، إنها لحاء الشجر^١ ، وليس ثمَّ ثمَرٌ ولا عبق . قال لي :
صدقت ، إني أراك قد ماثلت^٢ معي . قلت : كما سمعت . قال : فكيف كلامهم
بينهم ؟ قلت : ليس لسيبويه فيه عمل ، ولا للفراهيدي^٣ إليه طريق ، ولا
للبيان عليه سِمة . إنما هي لُكنةٌ أعجميةٌ يؤدُّون بها المعاني تأديةً المجوسِ
والنَّبَط . فصاح : إنا لله ، ذهب العربُ وكلامُها ! ارمهم يا هذا بسجع
الكُهَّان ، فعسى أن ينفعك عندهم ، ويُطيرَ لك ذِكْرًا فيهم . وما أراك ،
مع ذلك ، إلاَّ ثَقيلَ الوطأةِ عليهم ، كَرِيهَ المَجِيءِ إليهم .

فقال الشيخ الذي إلى جانبه ، وقد علمتُ أنه صاحبُ عبد الحميد ، ونفسي
مرتقبةٌ إلى ما يكون منه : لا يَغُرَّنكَ منه ، أبا عُبَيْنة ، ما تكلف لك من
المُثالَّة ، إنَّ السَّجَعَ لَطَبَعُهُ ، وإنَّ ما أَسَمَّكَ كُلفُهُ . ولو امتدَّ به طَلَقُ
الكلام ، وجرت أفراسُهُ في مَيْدانِ البَيان ، لصلَّى كودنُهُ^٤ وكلَّ بُرْئُهُ .
وما أراه إلاَّ من اللُّكْنِ الذين ذَكَر ، وإلاَّ فما للفصاحةِ لا تَهْدِر ، ولا
لأَعْرَابِيَّةٍ لا تَوِمِض ؟

فقلت في نفسي : طبعُ عبد الحميد ومساقه ، وربُّ الكعبة ! فقلت له :
لقد عَجِلْتَ ، أبا هُبَيْرَة ، — وقد كان زهيرٌ عَرَفَنِي بِكُنْيَتِهِ — إنَّ قوسَكَ

١ الحاء : القشر .

٢ مثنت : أتيت بالمثاللة .

٣ الفراهيدي : أي الخليل .

٤ صلي : أتى الفرس في الرهان بعد السابق . الكودن : الفرس الهجين .

لَنَبْعُ^١ ، وإنَّ ماءَ سَهْمِكَ لَسَمٌّ ، أَحِمَاراً رَمِيتَ أَمْ إِنْسَاناً ، وَقَعَقَعَةً طَلَبْتُ
 أَمْ بَيَاناً؟ وَأَيْكَ ، إِنَّ الْبَيَانَ لَصَعْبٌ ، وَإِنَّكَ مِنْهُ لَفِي عِبَاءَةٍ تَتَكَشَّفُ
 عَنْهَا أَسْتَاهُ مَعَانِيكَ ، تَكْشِفُ أَسْتِ الْعَنْزِ عَنْ ذَنْبِهَا . الزَّمانُ دِفٌّ لَا قُرَّ ،
 وَالْكَلامُ عِرَاقِي لَا شامي^٢ . إِنِّي لأَرى مِنْ دَمِ الْيَرْبُوعِ^٣ بِكَفَيْكَ ، وَالْمَحُ
 مِنْ كُشْيٍ الضَّبِّ عَلَى ماضِيَيْكَ . فَتَبَسَّمْ إِلَيَّ وَقَالَ : أَهَكَذَا أَنْتِ يَا أُطَيْلِسُ^٤ ،
 تَرْكَبُ لِكُلِّ نَهْجَةٍ ، وَتَعْرِجُ إِلَيْهِ عَجَجَةً؟ فَقُلْتُ : الذَّنْبُ أَطْلَسُ ، وَإِنَّ
 التَّبَسُّمَ مَا عَلِمْتُ !

فصاح به أبو عُبَيْنَةَ : لَا تَعْرِضْ لَهُ ، وَبِالْحَرِّ أَنْ تَخْلُصَ مِنْهُ . فَقُلْتُ :
 الْحَمْدُ لِلَّهِ خَالِقِ الْأَنْامِ فِي بَطُونِ الْأَنْعَامِ^٥ ! فَقَالَ : إِنَّهَا كَافِيَةٌ لَوْ كَانَ لَهُ
 حِجْرٌ^٦ . فَتَسَطَّانِي وَسَلَّانِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْهِمَا مِنْ رِسَالَتِي ، فَقَرَأْتُ رِسَالَتِي فِي
 صِفَةِ الْبَرْدِ وَالنَّارِ وَالْحَطَبِ فَاسْتَحْسَنَاهَا .

١ النبع : شجر صلب تصنع منه القسي .

٢ عراقِي لَا شامي : تعريض بمبد الحميد لأنه شامي والملاحظ عراقِي .

٣ اليربوع : نوع من الفأر طويل الرجلين ، قصير اليدنين ، وله ذنب كذنب الجرذ يرفعه صعوداً ،
 في طرفه شبه النواراة ، ولونه كلون النزال ، يصطاده الأعراب ويأكلونه .

٤ الكشي : جمع الكشية بالضم ، شحمة بطن الضب أو أصل ذنبه ، يأكلها الأعراب ، ومنه قولهم :
 أطعم أخاك كشية الضب ، وهو حث على المؤاساة ، وقيل بل هزه به . والمراد بذلك أنه يعير
 عبد الحميد ببداءة تعبيره لأنه شامي وليس كالملاحظ العراقي حضري التميمي .

٥ الأطلس : تصغير الأطلس ، وهو الذئب الأمعط في لونه غبرة إلى سواد ، والرجل إذا رمي
 بقيق ، والسارق .

٦ عَجَ إِلَيْهِ : صاح ورفع صوته ، والمراد بذلك أنه يسلك طريقته ، ويجري على أسلوبه .

٧ الأنعام : الإبل .

٨ الحجر : العقول .

رسالة الحلواء *

ومن رسالتي في الحلواء حيث أقول :

خرجتُ في لُمة^١ من الأصحاب ، وثُبة^٢ من الأتراب ، فيهم فقيه^٣ ذو لُقَم^٤ ، ولم أعرفْ به . وغريم^٥ بطن^٦ ، ولم أشعرْ له^٧ ، رأى الحلوى فاستخفّه الشره^٨ ، واضطرب به الولّه^٩ ، فدار في ثيابه ، وأسأل من لُعابه^{١٠} ، حتى وقف بالأكداس^{١١} وخالط غمار الناس^{١٢} ، ونظر إلى الفالوذج^{١٣} فقال : بأبي هذا اللّمص^{١٤} ، انظروه كأنّه الفصّ^{١٥} ؛ مُجاجة الزناير^{١٦} ، أجريت على شواير^{١٧} ، وخالطها لباب الحبة^{١٨} ، فجاءت أعذب من ريق^{١٩} الأحيّة .

* تختلف رواية الذخيرة لرسالة الحلواء عن رواية يتيمة الدهر بمض الاختلاف .

١ اللة بالضم : صاحب أو الأصحاب في السفر ، والمؤنس ، الواحد والجمع .

٢ الثبة : الجماعة .

٣ اللقم : سرعة الأكل .

٤ الغريم : صاحب الدين يطالب به مديونه ، والمديون الذي يطالبه صاحب الدين .

٥ شعر له : فطن له ، على النضين .

٦ الأكداس : أي أنواع الطعام .

٧ غمار الناس : لفيفهم وجمعهم المتكاثف .

٨ الفالوذج : حلواء تعمل من الدقيق والماء والمسل .

٩ اللمص : الفالوذج .

١٠ مجاجة الزناير : أي ريق النحل .

١١ شواير : لم نجد به ذكرآ في ما بين أيدينا من المعجمات ، إلا معجم دوزي ويظهر أن المراد به قطع

له شكل الزاوية ، كتقطيع الفالوذج ، وغيره من الحلواء .

١٢ ريق : في الأصل أنسة ، والتصحيح عن يتيمة الدهر .

ورأى الحبَّيص^١ فقال : بأبي هذا الغالي الرخيص ، هذا جليدُ سماء الرِّحمة .
تَمَخَّصَتْ به فأبرزتْ منه زُبْدَ النِّعْمة ، يُجْرَحُ باللَّحْظ ، ويدوبُ من
اللَّفْظ . ثم ابيضَّ ، قالوا بماء البَيْض^٢ البضَّ ، قال غَضٌ مِّنْ غَضٍّ ، ما
أطيبَ خَلْوةَ الحبيب ، لولا حَضْرَةُ الرَّقِيب !

ولمَحَ القُبَيْطَاءُ^٣ ، فصاح : بأبي نُقْرَةٌ^٤ الفضة البيضاء ، لا تَرُدُّ عَنِ
العَضَّة . أَيْنَارٍ طُبِخَتْ أَمْ يَنْوَرُ ؟ فإني أراها كقِطْعِ البَلَّور ، وبلورٌ عُجِنَتْ
أَمْ يَجْوَزُ ؟ فإني أراها عَيْنَ عَجِينِ الموز . ومشى إليها وقد عدَّلَ صاحبُها أُرْطَالَ
نُحَاسِهِ ، وعلَّقَ قِسْطَاسَهُ^٥ مِّنْ أُمَّ رَاسِهِ ؛ فقال : رِطْلٌ^٦ بدرهمَيْن ،
وانتهشها بالنَّابِين ، فصاح : القارعة^٧ ما القارعة ؟ ! هِيَهْ^٨ ! ويلٌ للمرء
مِنْ فِيهِ !

ورأى الزَّلايِبَةَ ، فقال : ويلٌ لَأَمَّهَا الزانية ، أَبَاحْشَانِي نُسِجَتْ ، أَمْ
مِنْ صِفَاقٍ قَلْبِي^٩ أَلْفَتْ ؟ فإني أجدُ مكانَهَا مِنْ نَفْسِي مَكِيناً ، وَحَبْلَ
هَوَاهَا عَلَى كَبِيدِي مَتِيناً ، فَمَنْ أَيْنَ وَصَلَتْ كَفُّ طَائِبِهَا إِلَى بَاطِنِي ، فَاقْتَطَعَتْهَا

١ الحبَّيص : حلواء تصنع من العسل والدقيق ، أو من التمر والسمن ، أو من الدبس والأرز .

٢ ماء البيض : أي زلال البيض .

٣ القبيضة : الناظف ، وهي الحلوى البيضاء التي تؤكل مع السنبوسق ، وتعرف عندها بكرابيح حسب .

٤ النقرة : القطعة المذابة من الذهب أو الفضة .

٥ القسطاس : الميزان .

٦ القارعة : أي القيامة التي تفرع القلوب بأهوالها .

٧ هيه : كلمة استزادة ، أو كلمة ثقالة لشيء يطرد .

٨ صفاق القلب : أي غشاؤه .

من دواجن^١ ؟ والعزير الغفار ، لأطلبنّها بالنّار ! ومشى إليها ، فتلمّظ^٢ له لسان الميزان ، فأجفل^٣ يصيح : الثّعبان الثّعبان !

ورُفِع له تمر النّشا^٤ ، غير مهضوم الحشا ، فقال : مهيم^٥ ! من أين لكم حتّى نخلة مريم^٦ ؟ ما أنتم إلّا السّحار ، وما جزاؤكم إلّا السيّف والنّار . وهم أن يأخذ منها . فأثبت^٧ في صدره العصا ، فجلس القرّصا ، يذري الدّموع ، ويُبدي الخشوع . وما منّا أحد إلّا عن الضّحك قد تجلّد . فرقت له ضلوعي ، وعلمت أن الله فيه غير مُضيعي . وقد تجمّل الصدقة على ذوي وقْر ، وفي كلّ ذي كبد رطبة أجر . فأمرت الغلام^٨ بابتياح أربال منها تجمع أنواعها التي أنطقته وتحتوي على ضروبها التي أضرّعه^٩ ، وجاء بها وسرنا إلى مكان خال طيب ، كوصف المهلبي^{١٠} :

خان تطيب ليباغي النّسك خلّوته وفيه سرّ على الفتاك إن فتكوا^{١١}

١ دواجن : أي أحشائي التي ألفت باطني .

٢ تلمّظ : أي خرج لسانه وتحرك .

٣ أجفل : الفأخر أنه حلواء تصنع من التمر والنشا .

٤ مهيم : اسم فعل للأمر ، ومعناه أخبرني .

٥ نخلة مريم : إشارة إلى الآية في سورة مريم : « وهزي إليك بجذع النخلة ، تساقط عليك رطاباً جنياً . »

٦ فأثبت : الضمير يعود إلى الحلواني .

٧ الندام : في الأصل الحلواني ، والتصحيح عن يثيمة الدهر .

٨ أضرّعه : أذله .

٩ لمهلبي : هو أبو محمد المهلبي الشاعر ، وزير معز الدولة بن بويه .

١٠ الفتاك : أصحاب المجون .

فَصَبَّهَا رَطْبَةُ الْوُقُوعِ ، كَرَادِيْسَ كَقِطْعِ الْجُدُوعِ ؛ فَجَعَلَ يَقْطَعُ
وَيَبْلَعُ ، وَيَدْحُوْهُ فَاهُ وَيَدْفَعُ ، وَعَيْنَاهُ تَبِصَّانِ كَأَنَّهُمَا جَمْرَتَانِ ، وَقَدْ
بَرَزْنَا عَلَى وَجْهِهِ كَأَنَّهُمَا خُصْبَتَانِ ، وَأَنَا أَقُولُ لَهُ : عَلَى رِسْلِكَ أَبَا فَلَانِ !
الْبِطْنَةُ تُذْهِبُ الْفِطْنَةَ ! فَلَمَّا التَّقَمَ جُمْلَةُ جَمَاهِيرِهَا ، وَأَتَى عَلَى مَآخِرِهَا ،
وَوَصَلَ خَوْرَتَيْهَا بِسَدِيرِهَا^١ ، تَجَشَّأَ فَهَبَّتْ مِنْهُ رِيحٌ عَقِيمٌ^٢ ، أَيْقَنَّا لَهَا
بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ . فَتَرْتَنَّا شَذَرَ مَذَرَ ، وَفَرَقْنَا شَغَرَ بَغَرٍ^٣ ، فَالْتَمَحْنَا مِنْهُ
الظُّرْبَانُ^٤ ، وَصَدَّقَ الْخَبَرَ فِيهِ الْعَيَانُ^٥ : نَفَحَ ذَلِكَ فَشَرَّدَ الْأَنْعَامَ^٦ ، وَنَفَخَ
هَذَا فَبَدَّدَ الْأَنَامَ^٧ ، فَلَمْ تَجْتَمِعْ بَعْدَهَا ، وَالسَّلَامُ .

فَاسْتَحْسَنَاهَا ، وَضَحِكَهَا عَلَيْهَا ، وَقَالَا : إِنَّ لَسَجْعِكَ مَوْضِعاً مِنَ الْقَلْبِ ،
وَمَكَاناً مِنَ النَّفْسِ ، وَقَدْ أَعْرَتَهُ مِنْ طَبْعِكَ ، وَحَلَاوَةِ لَفْظِكَ ، وَمَلَاخَةِ
سَوْقِكَ ، مَا أَزَالَ أَفْنَهُ^٨ ، وَرَفَعَ غَيْثَهُ^٩ ، وَقَدْ بَلَّغْنَا أَنَّكَ لَا تُجَازِي فِي أَبْنَاءِ
جَيْشِكَ ، وَلَا يُمَلُّ^{١٠} مِنَ الطَّعْنِ عَلَيْكَ ، وَالْإِعْتِرَاضِ لَكَ . فَمَنْ أَشَدُّهُمْ
عَلَيْكَ ؟ قُلْتُ : جَارَانِ دَارُهُمَا صَقَبٌ^{١١} ، وَثَالِثُ نَابِتِهِ نُوبٌ ، فَامْتَطَى ظَهَرَ

١ يدحو : يبسط .

٢ الخورنق والسدير : قصران في الحيرة الصمان الأكبر ، وقيل السدير موضع في الحيرة أو نهر .

٣ ربح عقيم : أي لا تلقح سحاباً ولا شجراً .

٤ فرقنا شغراً بغير : أي فرقنا في كل وجه ، مثل شذر مذر .

٥ الظربان : دوية كالغرة تنثت الريح .

٦ نفح : أخرج ريحه . ذلك : أي الظربان . الأنعام : في يتيمة الدهر : النعام .

٧ الأفن : النقص .

٨ النين : النعيم ، والنشأ والإلباس .

٩ الصقب : القريب للمذكر والمؤنث ، والقرب .

النوى ، وألفت به في سرقسطة العصا . فقالا : إلى أبي محمد تشير ، وأبي القاسم وأبي بكر ؟ قلت : أجل . قالا : فأين بلغت فيهم ؟ قلت : أما أبو محمد فانتضى علي^١ لسانه عند المستعين^٢ ، وساعدته زرافة^٣ استهنواها من الخاسدين ، وبلغني ذلك فأنشدته شعراً ، منه :

وَبُلِّغْتُ أَقْوَامًا تَجِيشُ صُدُورَهُمْ عَلَيَّ ؛ وَإِنِّي مِنْهُمْ فَارِغُ الصَّدْرِ
أَصَاخُوا إِلَى قَوْلِي فَأَسْمَعْتُ مُعْجِزًا ، وَغَاصُوا عَلَى مِرْيَ فَاغْبَاهُمْ أَمْرِي
فَقَالَ فَرِيقٌ : لَيْسَ ذَا الشَّعْرِ شِعْرُهُ ؛ وَقَالَ فَرِيقٌ : أَيْمَنُ اللَّهِ ، مَا نَدْرِي^٤
أَمَّا عَلِمُوا أَنِّي إِلَى الْعِلْمِ طَامِحٌ ؛ وَأَنِّي الَّذِي سَبَقًا عَلَى عِرْقِهِ يَجْرِي ؟
وَمَا كُلُّ مَنْ قَادَ الْجِيَادَ يَسُوسُهَا ؛ وَلَا كُلُّ مَنْ أَجْرَى يُقَالُ لَهُ : مُجْرِي
فَمَنْ شَاءَ فَلْيَتَخَبَّرْ فَلَنِّي حَاضِرٌ ، وَلَا شَيْءَ أَجْلَى لِلشُّكُوكِ مِنَ الْخُبَرِ

وأما أبو بكر فاقصر ، واقتصر على قوله : له تابعة تؤيدده . وأما أبو القاسم الإفليلي^٥ فمكانه من نفسي مكن ، وحبته بفؤادي دخیل ؛ على أنه حامل علي^٦ ، ومنتسب إلي^٧ .

١ المستعين : الخليفة الأموي سليمان بن الحكم الذي انتقلت الخلافة في قرطبة بعد مقتله إلى علي بن حمود الإدريسي .

٢ الزرافة : الجماعة من الناس ، أو العشرة منهم .

٣ الأيمن : جمع اليمين ، أي القسم ، وهذا مثل قولك : فقلت : يمين الله .

٤ الإفليلي . قال ابن حيان : وكان أبو القاسم المعروف بابن الإفليلي ، قد بذل أهل زمانه بقرطبة في علم اللسان العربي ، والضبط لغريب اللغة ، وكان راكباً رأسه في الخطأ البين يجادل عليه ، ولا يصرفه صارف عنه .

صاحب الإفليلي

فصاحا : يا أنفَ النَّاقَةِ بنَ مَعْمَرٍ ، مِن سَكَّانِ خَيْبَرِ ! فقام إليهما
جَنِيٌّ أَشْمَطُ رُبْعَةٍ وارِمُ الأنفِ ، يتظالَعُ^١ في مِشْيَتِهِ ، كاسِراً لَطَرَفِهِ ،
وزاويّاً لأنْفِهِ ، وهو يُنْشِدُ :

قَوْمٌ هُمُ الأنفُ والأَذْنَابُ غَيْرُهُمْ^٢ ، وَمَنْ يُسَوِّي بَأَنفٍ النَّاقَةَ الذَّنْبُ^٣ ؟

فقالا لي : هذا صاحبُ أَبِي القاسمِ ، ما قولُكَ فيه يا أنفَ النَّاقَةِ ؟ قال :
فتى لم أعْرِفْ على مَنْ قرأ . فقلتُ لنفسي : العصا من العُصَيَّةِ^٤ ! إن لم تُعَرِّبْ
عن ذاتِكَ ، وتُظْهِرِي بعضَ أَدَوَاتِكَ ، وأنتِ بَيْنَ فُرْسَانِ الكلامِ ، لم يَطِرْ
لكِ بعدَها طائرٌ ، وكنتِ غَرَضاً لكلِّ حَجَرٍ عابرٍ .

وأخذتُ للكلامِ أَهْبَنَهُ ، وليستُ للبيانِ بِرِزَّتِهِ ، فقلتُ : وأنا أيضاً لا
أعْرِفُ على مَنْ قرأتُ . قال : أَلَيْمِثْلِي يُقالُ هذا ؟ فقلتُ : فكان ماذا ؟ قال :
فطارِحَتِي كتابُ الخليل . قلتُ : هو عِنْدِي في زَنْبِيلٍ . قال : فناظِرْني على
كتابِ سَيِّئَتِهِ . قلتُ : خَرِيتُ الهِرَّةَ عِنْدِي عليه ، وعلى شرحِ ابنِ دَرَسْتَوَيْهِ .

١ يتظالَعُ : ينمز في مشيته .

٢ هذا البيت للحطينة في ملح بي أنف الناقة .

٣ امصا : فرس بلذيمة بن الأبرش . العصية أمها ، ومنه المثل : لا يلد العص غير العصية . أي
أن الفرع يشبه الأصل ، كما يشبه الإفليلي أنف الناقة .

فقال لي : دعْ عنكَ ، أنا أبو البَيَان . قلت : لاهَ الله^١ ! إنما أنتَ كُفْغَنٍ
وَسَطٌ ، لا يُحْسِنُ فِيطْرِبُ ، ولا يُسِيءُ فِيلْهِي^٢ . قال : لقد علّمنيهِ
المؤدَّبُون . قلتُ : ليس هو من شأنهم ، إنما هو من تعليمِ اللهِ تعالى حيثُ قال :
« الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ . » ليسَ من شِعْرِ
يُفَسَّرَ ، ولا أرضٍ تُكَسَّرُ . هيهات ، حتى يكونَ المِسْكُ من أنفاسِكَ ،
والعَنْبَرُ من أنفاسِكَ^٣ ؛ وحتى يكونَ مَسَاقُكَ عَذْبًا ، وكلامُكَ رَطْبًا ،
ونَفْسُكَ مِنْ^٤ نَفْسِكَ ، وقَلْبُكَ من قَلْبِكَ ؛ وحتى تتناولَ الوَضِيعَ
فترفعه ، والرفِيعَ فنضعه ، والقيحَ فتحسنه !
قال : أسمعني مِثَالًا . قلتُ : حتى تَصِفَ بُرْغُوثًا فنقول :

صفة برغوث

أَسْوَدُ زَنْجِيٍّ ، وَأَهْلِي^٥ وَحْشِيٍّ ؛ ليسَ بِوَانٍ ولا زُمَيْلٍ^٦ ، وكأنّه
جُزءٌ لا يتجزأ من ليلٍ ؛ أو شُونِيزَةٌ^٧ ، أو ثَقْتَنُهَا غَرِيزَةٌ ؛ أو نقطةٌ مِدَادٍ ،

١ لاه : تسمّر وعلا وارتفع . وجوز سبويه اشتقاق اسم الجلالة منه ، ولأه الله بمعنى تبارك الله .

٢ ألمى : ترك الشيء عجزاً .

٣ لأنفاس : جميع النفس ، وهو المداد .

٤ انقلب : البئر .

٥ الزميل : الجبان الضعيف .

٦ لشونيزة : الحية السوداء . في الأصل : وشونيزة ، والتصحيح عن قيمة الدھر .

٧ أوثقتها : أحكمها .

أو سُوَيْدَاءُ قَلْبٍ قُرَادٍ^١ ؛ شُرْبِهِ عَبٌّ ، وَمَشْيُهُ وَثْبٌ ؛ يَكْمُنُ نَهَارَهُ ،
وَيَسْتَرِي لَيْلَهُ ؛ يَدَارِكُ بَطْعَنٍ مَوْلَمٌ ، وَيَسْتَحِلُّ دَمَ كُلِّ كَافِرٍ وَمُسْلِمٍ^٢ ؛
مُسَاوِرٌ^٣ لِلْأَسَاوِرَةِ ، يَجْرُ ذَيْلُهُ عَلَى الْجَابِرَةِ ؛ يَتَكَفَّرُ^٤ بِأَرْفَعِ الثِّيَابِ ، وَيَهْتِكُ^٥
سِتْرَ كُلِّ حِجَابٍ ، وَلَا يَحْفِلُ^٦ بِيَوَّابٍ ؛ يَرِدُ مَنَاهِلَ الْعَيْشِ الْعَذْبَةِ ، وَيَصِلُ^٧
إِلَى الْأَحْرَاجِ^٨ الرُّطْبَةِ ، لَا يَمْنَعُ مِنْهُ أَمِيرٌ ، وَلَا يَنْفَعُ فِيهِ غَيْرُهُ غَيْرٌ ، وَهُوَ
أَحْقَرُ كُلِّ حَقِيرٍ ؛ شَرُّهُ مَبْثُوثٌ ، وَعَهْدُهُ مَنَكُوثٌ ، وَكَذَلِكَ كُلُّ
بُرْغُوثٍ ، كَفَى بِهَذَا نَقْصًا لِلْإِنْسَانِ ، وَدَلَالَةً^٩ عَلَى قُدْرَةِ الرَّحْمَنِ .

صفة ثعلب

وَحَتَّى نَصِفَ ثَعْلَبًا فَتَقُولُ : أَهْمَى مِنْ عَمْرُو^٨ ، وَأَفْنَكُ مِنْ قَاتِلِ حُدَيْفَةَ^٩

١ القُرَادُ : حُلْمَةُ الْبُغْدَادِيِّ ، وَدَوِيَّةٌ تَمْلُقُ بِالْبَحْرِ وَتَحْمُوهُ كَالْقَمَلِ فِي الْإِنْسَانِ .

٢ يَدَارِكُ : فِي الْأَصْلِ يَدْرِكُ ، وَالتَّصْحِيحُ عَنْ يَتِيمَةِ الدَّهْرِ . كَافِرٌ : نَاقِصَةٌ فِي الْأَصْلِ ، وَالزِّيَادَةُ عَنْ يَتِيمَةِ الدَّهْرِ .

٣ مُسَاوِرٌ : مُوَاتِبٌ .

٤ الْأَسَاوِرَةُ : الْفَرَسَانِ الثَّابِتُونَ عَلَى ظُهُورِ غَيَولِهِمْ ، وَالَّذِينَ يَجْعِدُونَ الرَّمِيَّ بِالسَّهْمِ .

٥ يَهْتِكُ : يَتَسَرَّ .

٦ الْأَحْرَاجُ : جَمْعُ الْحَرَجِ بِالتَّحْرِيكِ ، وَهُوَ الْمَكَانُ الضَّيْقُ الْكَثِيرُ الشَّجَرِ وَيَكْنَى بِهِ عَنِ الْحَرَمَةِ ، وَزَجَّحَ أَنْ فِي الْجَمْعِ تَصْحِيفًا ، فَهُوَ بِالْحَاءِ كَمَا أَوْرَدَهُ الثَّعَالِبِيُّ فِي يَتِيمَةِ الدَّهْرِ .

٧ وَدَلَالَةٌ : فِي الْأَصْلِ : وَدَالًا ، وَالتَّصْحِيحُ عَنْ يَتِيمَةِ الدَّهْرِ .

٨ عَمْرُو : أَيِ ابْنِ الْعَاصِ .

ابن بدر^١ : كثير الوقائع في المسلمين ، مغررى بإراقة دماء المؤذنين^٢ ؛ إذا رأى الفرصة انتهزها ، وإذا طلبته الكُماة أعجزها ؛ وهو مع ذلك بقراط^٣ في إدامه^٤ ، وجالينوس^٥ في اعتدال طعامه ؛ غداؤه حمام^٦ أو دجاج ، وعشاؤه تدرج^٧ أو دراج^٨ .

صاحب بديع الزمان

وكان فيما يقابلني من ناديبهم فتى قد رَماني بطرفه ، واتكأ لي على كفه ، فقال : تحيّل^١ على الكلام لطيف^٢ ، وأبيك ! فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : أوما علمت أن^٣ الواصف إذا وصّف شيئاً لم يُتقدّم إلى صفته ، ولا سلّط الكلام^٤ على نعتِه ، اكتفى بقليل الإحسان ، واجتزأ^٥ بيسير البيان ؟ لأنه لم يتقدّم^٦ وصف يُقرَن^٧ بوصفه ، ولا جرى مساق^٨ يُضاف^٩ إلى مساقه . وهذه

١ حذيفة بن بدر : سيد بني فزارة ، قتل في حرب داحس والغبراء .

٢ المؤذنين : جمع المؤذن ، وهو هنا الديك لأنه يؤذن في الصباح ، كأنه يسبح لله .

٣ بقراط : أعظم طبيب يوناني في القديم .

٤ الإدام : ما يؤتد به من الطعام ، ويعرف بالدامة عند العامة .

٥ جالينوس : طبيب يوناني قديم اشتهر بالتشريح .

٦ تدرج : طائر جميل المظهر جداً ، يرد في البساتين بأصوات طيبة ، وموطنه بأرض خراسان وخراس . وهو شبيه بالدراج إلا أنه أفضل منه لحماً .

٧ الدراج : طائر جميل المنظر ملون الريش ، زعموا أن لحمه يزيد في الدماغ والفضة .

٨ اجتزأ : اكتفى ، لمة في اجتزأ .

نُكْتَةُ بَغْدَادِيَّة ، أَتَى لَكَ بِهَا يَا فَتَى الْمَغْرِب ؟

فَقُلْتُ لَزُهُير : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : زُبْدَةُ الْحِقَب ، صَاحِبُ بَدِيعِ الزَّمَانِ .
فَقُلْتُ : يَا زُبْدَةُ الْحِقَب ، اقْتَرَحْ لِي . قَالَ : صِفْ جَارِيَةً . فَوَصَفْتُهَا . قَالَ :
أَحْسَنْتَ مَا شِئْتَ أَنْ تُحْسِنَ ! قُلْتُ : أَسْمِعْنِي وَصْفَكَ لِلْمَاءِ . قَالَ : ذَلِكَ مِنْ
الْعُقْمِ^٢ . قُلْتُ : بِحَيَاتِي هَاتِيهِ . قَالَ : أَزْرُقُ كَعَيْنِ السَّنُورِ ، صَافٍ كَقَضِيْبِ
الْبَلُورِ ؛ انْتُخِبَ^٣ مِنَ الْفُرَاتِ^٤ وَاسْتُعْمِلَ بَعْدَ الْبَيَاتِ^٥ ، فَجَاءَ كَلْسَانَ الشَّمْعَةِ ،
فِي صِفَاءِ الدَّمْعَةِ .

فَقُلْتُ : انْظُرْهُ ، يَا سَيِّدِي ، كَأَنَّهُ عَصِيرُ صَبَاحٍ ، أَوْ ذَوْبُ قَمَرٍ
لِيَبَاحٍ^٦ ؛ يَنْصَبُ مِنْ إِيَّائِهِ ، انْصِبَابَ الْكُوكَبِ مِنْ سَمَائِهِ ؛ الْعَيْنُ^٧ حَانُوتُهُ ،
وَالْقَمَرُ عِفْرِيَّتُهُ ، كَأَنَّهُ خَيْطٌ مِنْ غَزَلٍ فَلَيْقِ ، أَوْ مِخْصَرٌ^٨ يُضْرَبُ بِهِ مِنْ
وَرَقٍ^٩ ؛ يَرْفَعُ عَنْكَ فَرْدَى^٩ ، وَيُصْدَعُ^{١٠} بِهِ قَلْبُكَ فَتَحِيَا .

١ وصف الماء لبديع الزمان في المقامة المضيرية .

٢ من العقم : أي لا يولد شبيه له .

٣ انتخب : في المقامة المضيرية : استقي .

٤ الفرات : الماء العذب ، أو لعله أراد به دجلة ، لأن قصة المضيرة وقعت في بغداد ، يقال :
الفراتان ، أي الفرات ودجلة .

٥ البيات : أي أن يبيت الماء في إناء تحت السماء ليبرد ، ويصفى .

٦ ليح : أيض ناصع .

٧ العين : أي عين الماء .

٨ المحصر : رواية قيمة الدهر : المخصرة ، وهي قضيب كان الأمير يأخذه بيده ، يشر به ويصل
به كلامه . الورق : الفضة .

٩ تردى : أي تهلك عطشاً .

١٠ يصدع : يشق .

فلما انتهت في الصفّة ، ضرب زُبدة الحَقَبِ الأرضَ بِرِجْلِهِ ،
فانفَرَجَتْ له عن مثل بَرَهوت^١ ، وتدهى^٢ إليها ، واجتمعت عليه ، وغابت
عينُه . وانقطع أثرُه . فاستضحك الأستاذان من فعله ، واشتدَّ غَيْظُ أنفِ
النّاقَةِ عليّ^٣ .

رجع إلى أنف الناقَة

فقال : وقعت لك أوصافٌ في شعرك تظُنُّ أني لا أستطيعُها ؟ فقلتُ له :
وحى تصيف عارضاً^٤ فتقول :

ومُرتَجِرٍ ألقى بذِي الأَثَلِ كَلَكَلًا ، وَحَطَّ بِجَرَءِ الأَبَارِقِ ما حَطَّ ،
سعى في قِيَادِ الرِّيحِ يُسَمِّحُ للَصَّبَا ، فَأَلْقَتْ على غَبْرِ التَّلَاعِ به مِرْطًا^٥
وما زال يُروِي الثُّرْبَ حتى كسا الرُّبَى دَرَانِكَ ، والغِيْطَانِ من نَسْجِهِ بُسْطًا^٦

١ برهوت : واد أو بئر بحضرموت .

٢ تدهى : تدهرج .

٣ العارض : السحاب المتروص في السماء .

٤ المرتجيز : السحاب يتحرك بطيئاً لكثرة مائه ، ويتدارك صوت رعدِهِ . الأَثَل : شجر عظيم يشبه
الطرفاء . الجِرْعاء : الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل ، أو الكثيب ، بجانب منه رمل ، وجانب
حجارة . الأَبَارِق : جمع الأبرق ، وهو غلظ فيه حجارة ورمل وطين مختلفة .

٥ عل غير التلاع : أي عل غير الأماكن المرتفعة . والتلاع مسايل المياه من الجبال والمرتفعات .
المرط : كساء من صوف أو غز .

٦ الدرانك : الطنافس ، واحدها درنك بكسر فسكون فكسر ، والمراد الزهر الذي نبت عن المطر .
الغيطان : جمع الغوط ، وهو المططن الواسع من الأرض .

وَعَنَّتْ لَهُ رِيحٌ تُسَاقِطُ قَطْرَهُ ، كَمَا نَفَرَتْ حَسَنَاءُ مِنْ جِيدِهَا سِمَاطُ
وَلَمْ أَرْ دُرّاً بَدَّدَتْهُ يَدُ الصَّبَا سِوَاهُ ، فَبَاتَ النُّورُ يَلْفُطُهُ لَقْطَا
وَبِتْنَا نُرَاعِي اللَّيْلَ لَمْ نَطْوِ بُرْدَهُ ، وَلَمْ يَجِرْ شَيْبُ الصُّبْحِ فِي فَرْعِهِ وَخَطَا
تَرَاهُ كَمَلِّكَ الزَّجَجِ فِي قَرطِ كِبَرِهِ ، إِذَا رَامَ مَشْيَاً فِي تَبَخُّثِهِ أَبْطَا
مُطِلاً عَلَى الْآفَاقِ وَالْبَدْرُ تَاجُهُ ، وَقَدْ عُلِقَ الْجُوزَاءُ مِنْ أُذُنِهِ قُرطَا

وحتى تصيف ذنباً فنقول :

إِذَا اجْتَازَ عُلُوِّي الرِّيحَ بِأَفْقِهِ ، أَجَدَّ ، لِعِرْفَانِ الصَّبَا ، يَتَنَفَّسُ^١
تَذَكَّرَ رَوْضاً مِنْ شَوِيحٍ وَبَاقِرٍ ، تَوَلَّتْهُ أَحْرَاسٌ مِنَ الذُّعْرِ تُحَرَّسُ^٢
إِذَا انْتَابَهَا مِنْ أَذْوَْبِ الْقَفْرِ طَارِقٌ^٣ حَيْثُ ، إِذَا مَا اسْتَشْعَرَ اللَّحْظَ يَهْمِسُ^٤
أَزَلُّ كَمَا جُثْمَانُهُ مُنْسَتَرَاً طِبَالِسَ سَوْدَاً لِلدُّجَى وَهُوَ أَطْلَسُ^٥
فَدَلَّ عَلَيْهِ لَحْظُ خَيْبٍ مُخَادِعٍ ، تَرَى نَارَهُ مِنْ مَاءِ عَيْنَيْهِ تَقْبَسُ^٦

فصاح فتیانُ الجنِّ عندَ هذا البيتِ الأخيرِ : زَاهِ^٦ ! وعلتْ أنفَ الناقةِ

١ أجَدَّ : أسرع .

٢ انشوي : انشاء . الباقر : اسم جمع للبقر .

٣ استشعر : خاف . همس : يسير بالليل .

٤ الأول : القليل اللحم ، والسريع . الأطلس : الذئب الأمعط في لونه غبرة إلى سواد .

٥ الخب : المخادع الخبيث الفاش .

٦ راه : حكاية صوت المرتضي والمتعجب ، لم نجد لها ذكراً في كتب اللغة ، وإمى ذكر زه زه :

حكاية قول المرتضي ، وزيزي : حكاية صوت الجن .

كَابَّةٌ ، وَظَهَرَتْ عَلَيْهِ مَهَابَةٌ ، وَاخْتَلَطَ كَلَامُهُ ، وَبَدَأَ مِنْهُ سَاعَتُهُ بِوَادٍ فِي خُطَابِهِ ، رَحِمَهُ لَهَا مَنْ حَضَرَ ، وَأَشْفَقَ عَلَيْهِ مَنْ أَجْلَاهَا مَنْ نَظَرَ .

صاحب أبي إسحاق بن حمام

وَشَمَّرَ لِي فَتَى ، كَانَ إِلَى جَانِبِهِ ، عَنْ سَاعِدٍ ، وَقَالَ لِي : وَهَلْ بَضُرُ قَرِيحَتِكَ ، أَوْ يَنْقُصُ مِنْ بَدَنِيَّتِكَ لَوْ تَجَافَيْتَ لَأَنْفِ النَّاقَةِ ، وَصَبَرْتَ لَهُ ؟ فَإِنَّهُ عَلَى عِلَاقَتِهِ زَيْرُ عِلِمٍ ، وَزَيْنِيلُ فَهْمٍ ، وَكَتَفُ رِوَايَةٍ . فَقُلْتُ لَزْهِيرٍ : مَنْ هَذَا ؟ فَقَالَ : هُوَ أَبُو الْآدَابِ صَاحِبُ أَبِي إِسْحَاقَ بْنِ حُمَامٍ جَارِكَ . فَقُلْتُ : يَا أَبَا الْآدَابِ ، وَزَهْرَةَ رِيحَانَةِ الْكِتَابِ ، رِفْقًا عَلَى أَخِيكَ بَغْرَبِ لِسَانِكَ ، وَهَلْ كَانَ بَضُرُ أَنْفِ النَّاقَةِ ، أَوْ يَنْقُصُ مِنْ عِلْمِهِ ، أَوْ يَفُلُّ شَقْرَةُ فَهْمِهِ ، أَنْ يَصِيرَ لِي عَلَى زَلَّةٍ تَمُرُّ بِهِ فِي شِعْرِ أَوْ خُطْبَةٍ ، فَلَا يَهْتِفُ بِهَا بَيْنَ تَلَامِيذِهِ ، وَيَجْعَلُهَا طَرْمَذَةً^٢ مِنْ طَرَامِيذِهِ ؟ فَقَالَ : إِنَّ الشَّبُوحَ قَدْ تَهَنُّوْا أَحْلَامُهُمْ فِي النَّدْرِ . فَقُلْتُ : إِنَّهَا الْمَرْءُ بَعْدَ الْمَرْءِ .

ثُمَّ قَالَ لِي الْأَسْتَاذَانِ عُبَيْدُ بْنُ أَرْقَمٍ ، وَأَبُو هُبَيْرَةَ صَاحِبِ عَبْدِ الْحَمِيدِ : إِنَّا لَنَخْطِيطُ مِنْكَ بَيْتَدَاءَ حَيْرَةٍ ، وَتُفْتَقُ أَسْمَاعُنَا مِنْكَ بِعَبْرَةٍ ، وَمَا نَدْرِي أَنْقُولُ : شَاعِرٌ أَمْ خَطِيبٌ ؟ فَقُلْتُ : الْإِنْصَافُ أَوْلَى ، وَالصَّدْعُ بِالْحَقِّ أَحَجَى ، وَلَا بُدَّ مِنْ قَضَاءٍ . فَقَالَا : اذْهَبْ فَإِنَّكَ شَاعِرٌ خَطِيبٌ .

وَانْقَضَ الْجَمْعُ وَالْأَبْصَارُ إِلَيَّ نَاطِرَةً ، وَالْأَعْنَاقُ تَحْوِي مَائِلَةً .

١ غرب اللسان : حديثه .

٢ الطرمذة : الصلف والمفاخرة .

الفصل الثالث

نقاد الجن

مجلس أدب

وحضرتُ أنا أيضاً وزهيرٌ مجليساً من مجالسِ الجن^١ ، فتذاكرنا ما تعاورته
الشعراءُ من المعاني ، ومن زاد فأحسن الأخذ^٢ ، ومن قصر . فأنشدَ قولَ
الأفوه^٣ بعضُ من حضر :

وترى الطيرَ على آثارنا رأيَ عَيْنٍ ، ثقةً أن ستمار^٤

وأنشد آخرُ قولَ النابغة :

إذا ما غَزَوْا بالبحرِ حلقَ فوقهم^٥ عصائبُ طيرٍ تهتدي بعصائبِ
تراهنَّ خلفَ القومِ خُزراً عيُونُها جلوسَ الشيوخِ في ثيابِ المرائبِ^٦

١ الأفوه : أي الأفوه الأودي ، شاعر جاهلي .

٢ سَمَار : أي سَمَطَى مِرَّتْهَا مِنْ جِثِّ الْقَتْلِ .

٣ الخزر : جمع الأخرز ، وهو الذي ينظر بمؤخر عينه . المرائب : ثياب سود أو أكسية من جلود
الأرانب . يشبه النسور وسواها من الجوارح ، وما عليها من الريش ، بشيوخ عليهم الفراء .

جَوَانِحَ ، قد أُيْقِنَ أَنَّ قَبِيلَهُ ، إذا ما التقي الجيشانِ ، أوَّلُ غالبِ

وأنشد آخرُ قولَ أبي نَواس :

تَتَأَيَّا الطَّيْرُ غَدَوَتَهُ ثِقَةً بِالشُّبْعِ مِنْ جَزَرِهِ^١

وأنشد آخرُ قولَ صَريعِ النَواني^٢ :

قد عودَ الطَّيْرَ عَادَاتٍ وَثِقْنَ بِهَا ، فَهُنَّ يَتَّبَعْنَهُ فِي كُلِّ مُرْتَحَلٍ

وأنشد آخرُ قولَ أبي تَمَامٍ :

وقد ظَلَّلْتُ عِقْبَانَ أَعْلَامِهِ ضُحَى بَعِيقَانِ طَيْرٍ فِي الدَّمَاءِ نَوَاهِلِ^٣
أَقَامَتْ مَعَ الرَّايَاتِ حَتَّى كَانَتْهَا مِنَ الْجَيْشِ ، إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَقَاتِلِ

فقال شَمْرَدَلُ السَّحَابِي : كُلُّهُمْ قَصَرَ عَنِ النَّابِغَةِ ، لِأَنَّهُ زَادَ فِي الْمَعْنَى وَدَلَّ
عَلَى أَنَّ الطَّيْرَ إِنَّمَا أَكَلَتْ أَعْدَاءَ الْمَدُوحِ ، وَكَلَامُهُمْ كُلُّهُمْ مُشْتَرَكٌ يَحْتَمِلُ
أَنْ يَكُونَ ضِدًّا مَا نَوَاهُ الشَّاعِرُ ، وَإِنْ كَانَ أَبُو تَمَامٍ قَدْ زَادَ فِي الْمَعْنَى . وَإِنَّمَا
الْمَحْسَنُ الْمُتَخَلِّصُ الْمُتَنَبِّي حَيْثُ يَقُولُ :

لَهُ عَسْكَرًا خَيْلٍ وَطَيْرٍ إِذَا رَمَى بِهَا عَسْكَرًا لَمْ تَبْقَ إِلَّا جَمَاجِمُهُ^٤

١ تتأيا : تفصد وتتمدد . غدوته : أي إلى الحرب . من جزره : أي مما يترك من خوم القتل
فريسة لها .

٢ صريع النواني : مسلم بن الوليد ، الشاعر العبَّاسي .

٣ العقبان الأولى : الرايات .

٤ بها : الضمير عائد إلى الخيل والطير لا إلى عسكرا .

وكان بالحضرة فتى حسن البزة، فاحتد لقول شمر دل، فقال : الأمر على ما ذكرت يا شمر دل ، ولكن ما تسأل الطير إذا شيعت أي القبيلين الغالب ؟ وأما الطير الآخر فلا أدري لأي معنى عافت الطير الجماجم دون عظام السوق والأذرع والفقارات والعصا عيص ؟ ولكن الذي خلص هذا المعنى كله ، وزاد فيه ، وأحسن التركيب ، ودل بلفظة واحدة على ما دل عليه شعر النابغة وبيت المتنبي ، من أن القتل التي أكلتها الطير أعداء المدوح ، فأنك بن الصقعب في قوله :

وتدري سباع الطير أن كماته ، إذا لقيت صيد الكماة ، سباع^١
 لهن لعاب في الهواء وهزة^٢ ، إذا جد بين الدارعين قراع^٣
 تطير جيباً فوقه وتردّها طباه إلى الأوكار وهي شباع^٤
 تملك بالإحسان ربة رقتها ، فهن رقيق يشرى وبباع^٥
 والنعم من أفرانها فهي طرعه ، لدى كل حرب ، والمأوك تطاع^٦
 تماصع جرحاها فيجهز نقرها عليهم ، وللطير العناق ميصاع^٧

فاهتز المجلس لقوله ، وعلموا صدقه . قلت لزهير : من فأنك بن الصقعب ؟ قال : يعني نفسه . قلت له : فهلاً عرفني شأنه منذ حين ؟ إني لأرى نزعات كريمة . وقمت فجلست إليه جلسة المعظم له . فاستدار نحوي ،

١ الصيد : جمع الصيد وهو الرافع الرأس كبيراً .

٢ ألحم : ألحم اللحم . من أفرانها : لبيان الجنس .

٣ تماصع : تقائل .

مُكْرِمًا لِمَكَانِي ، فقلت : جُدْ أَرْضَنَا ، أَعَزَّكَ اللَّهُ ، بِسَحَابِكَ ، وَأَمْطِرْنَا
بَعْيُونِ آدَابِكَ . قال : سَلْ عَمَّا شِئْتَ . قلتُ : أَيُّ مَعْنَى سَبَقَكَ إِلَى الْإِحْسَانِ
فِيهِ غَيْرُكَ ، فوجدته حين رُئِيته صَعْبًا عَلَيْكَ إِلَّا أَنَّكَ تَقَدَّتَ فِيهِ ؟ قال : مَعْنَى
قَوْلِ الْكِئِنْدِيِّ^١ :

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَمَا نَامَ أَهْلُهَا ، سَمُوَ حَبَابِ الْمَاءِ حَالًا عَلَى حَالٍ

قلتُ : أَعَزَّكَ اللَّهُ ، هُوَ مِنَ الْعُقْمِ . أَلَا تَرَى عُمَرَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَهُوَ
مِنَ أَطْبَعِ النَّاسِ ، حِينَ رَامَ الدُّنُوَّ مِنْهُ وَالْإِلَامَ بِهِ ، كَيْفَ افْتَضَحَ فِي قَوْلِهِ :
وَنَفَضْتُ عَنِّي النَّوْمَ أَقْبَلْتُ مِشِيَّةً^٢ الْحَبَابِ ، وَرُكْنِي خَيْفَةَ الْقَوْمِ أَزُورُ^٣
قال : صدقت ، إِنَّهُ أَسَاءَ قِسْمَةَ الْبَيْتِ ، وَأَرَادَ أَنْ يُنْطِفِ التَّوَصُّلَ ،
فَجَاءَ مُقْبِلًا بِرُكْنٍ كَرُّكَهُ أَزُورُ . فَأَعْجَبَنِي ذَلِكَ مِنْهُ^٤ ، وَمَا زِلْتُ مُقَدِّمًا
لِهَذَا الْمَعْنَى رِجَالًا ، وَمُؤَخَّرًا عَنْهُ أُخْرَى ، حَتَّى مَرَرْتُ بِشَيْخٍ يُعَلِّمُ بُنْيَا لَهُ
صِنَاعَةَ الشَّعْرِ وَهُوَ يَقُولُ لَهُ : إِذَا اعْتَمَدْتَ مَعْنَى قَدْ سَبَقَكَ إِلَيْهِ غَيْرُكَ فَأَحْسِنْ
تَرْكِيبَهُ ، وَأَرَقَّ حَاشِيَتَهُ فَاضْرِبْ عَنْهُ جُمْلَةً . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بُدَّ فَفِي غَيْرِ الْعَرُوضِ
الَّتِي تَقْدِّمُ إِلَيْهَا ذَلِكَ الْمُحْسِنُ ، لَتَنْشَطَ طَبِيعَتُكَ ، وَتَقْوَى مُسْنُكُ^٥ .

١ الكندي : أَيِ اسْرُو الْقَيْسِ .

٢ خيفة : فِي رِوَايَةٍ : خَشْيَةٍ . وَرِوَايَةُ الدِّيَوَانِ :

وَخَفَضَ عَنِّي الصَّوْتِ أَقْبَلْتُ خَشْيَةً ١١ حَبَابٍ ، وَشَخْصِي خَشْيَةً الْهِيَ أَزُورُ

٣ مِنْهُ : أَيِ مِنَ الْكِنْدِيِّ .

٤ الْمُنَّةُ بِالضَّمِّ : الضَّعْفُ ، وَالْقُوَّةُ ، مِنَ الْأَضْدَادِ .

فتذكرتُ قولَ الشاعر^١ وقد كنتُ أنسيتهُ :

لَمَّا تَسَامَى النَّجْمُ فِي أَفْقِهِ وَلاَحَتِ الْجُوزَاءُ وَالْمِرْزَمُ^٢
أَقْبَلْتُ وَالْوَطَاءُ خَفِيفٌ كَمَا يَنْسَابُ مِنْ مَكَمَتِهِ الْأَرْقَمُ^٣

فعلِمتُ أنه صدق ؛ وابن أبي ربيعة لو ركب غيرَ عَرَوْضِهِ لَخَلَصَ .
فقلتُ أنا في ذلك :

وَلَمَّا تَمَسَّأَ مِنْ سُكْرِهِ فَنَامَ ، وَنَامَتِ عُيُونُ الْعَسَسِ^٤
دَنَوْتُ إِلَيْهِ ، عَلَى بُعْدِهِ ، دُئُوٌّ رَفِيقٌ دَرَى مَا التَّمَسُّ^٥
أَدَبُ إِلَيْهِ دَيِّبَ الْكَرَى ، وَأَسْمُو إِلَيْهِ سُمُو النَّفَسِ^٥
وَبَيْتٌ بِهِ لِبَلَّتِي نَاعِمًا ، إِلَى أَنْ تَبَسَّمَ تَغَرُّ الْغَلَسِ^٥
أَقْبَلُ مِنْهُ بَيَاضَ الطُّلَا ، وَأَرَشَفُ مِنْهُ سَوَادَ اللَّعَسِ^٥

فَقَمْتُ وَقَبَلْتُ عَلَى رَأْسِهِ ، وَقُلْتُ : اللَّهُ دَرُّ أَيْبِكَ !

١ الشاعر : هو إسماعيل بن يسار النسائي شاعر أموي من موالى بني تيم بن مرة ، تيم قریش ، وكان منقطعاً إلى آل الزبير ، ثم وفد على عبد الملك بن مروان ومدحه . وعاش صبراً طويلاً إلى أن أدرك آخر سلطان بني أمية .

٢ المِرْزَم : نجم ، وهما مرزمان مع الشريرين . رواية الأغاني :

حتى إذا الصبح بدا ضوؤه وغارت الجوزاء والمِرْزَم

٣ أقبَلْتُ : رواية الأغاني : خرجت . خفيف : رواية الأغاني : خفي .

٤ تَمَسَّأَ : امتلأ .

٥ الطُّلا : الأعناق ، أو أصولها ، واحدها طلية أو طلاة . اللَّعَس : سواد مستحسن في الشفة .

فقال لي فاتيكُ بنُ الصَّفْعَب : فهل جاذبتَ أنتَ أحداً من الفُحول ؟
قلتُ : نعم ، قولَ أبي الطَّيِّب :

أأخلعُ المجدَّ عن كِثْفي وأطلبُهُ ، وأتركُ الغَيْثَ في غِمْدي وأنتَجِعُ ؟^١
قال لي : بماذا ؟ قلتُ : بقولي :

ومن قُبَّةٍ لا يُدركُ الطَّرْفُ رأسَهَا ، وتَزِلُّ بها رِيحُ الصَّبَا فتَحَدُّرُ
إذا زاحَمَتْ منها المخارِمَ صَوَّبَتْ هَوِيّاً ، على بُعْدِ المدى ، وهي تَجَارُ
تَكَلَّفَتْهَا ، والليلُ قد جاشَ بجره ، وقد جَعَلَتْ أُمُوجُهُ تَنكسرُ ،
ومن تحتِ حِضْنِي أبيضُ ذو سَفاسِقٍ ، وفي الكَفِّ من عَسَّالةِ الحَطِّ أَسْمَرُ^٢
هُما صاحِبَايَ مِنْ لَدُنْ كُنْتُ يافِعاً ، مَقِيلانِ مِنْ جَدِّ الفَتَى حينَ بَعَثُ^٣
فذا جَدَوَلٌ في الغِمْدِ تُسْقَى به المُنَى ، وذا غُصْنٌ في الكَفِّ يُجْنَى فيثْمِرُ^٤

فقال : واللهِ لئن كان الغَيْثُ أبلغ ، فلقد زدتَ زيادةً مليحةً طريفةً ،
واخترعتَ معانيَ لطيفةً . هل غيرُ هذا ؟ فقلتُ : وقوله أيضاً :

١ أأخلع : رواية الديوان : أأطرح . كنى بالمجد والغيث عن السيف لأنهما يدركان به ، والمراد بالغيث الخصب وسمة العيش .

٢ المخارم : أنوف الجبال ، والمراد هنا أعالي الخيمة . صويت : ضد صعدت . تجار : تصوت .

٣ السفاسق : طرائق السيف وشطبه .

٤ الجد : الحظ .

وأظما فلا أبدي إلى الماء حاجة^١ وللشمس فوق اليمّلات لعب^٢

قال : بماذا ؟ قلت : بقولي :

ولم أنسَ بالتأووس أيا منّا الألى بها أيننا محبّوبها وحبايبها^٣
وفتية ضرب من زناة ، مُطير بوبل المنايا طعنها وضربها
وقفنا على جسر من الموت وقفة ، صليّ لظاه داب قومي ودابها
إذا الشمس رامت فيه أكل لحومنا ، جرى جشعا فوق الجياد لعبها

فصاح صيحة منكرة^٤ من صياح الجن^٥ كاد يُنخب لها فؤادي فرعا ،
والله ، منه !

وكان بنجوة منا جيتي^٦ كأنه هضبة لركائيه وتقبطه ، يحدّق في دونهم ،
يرميني بسهمين نافذين ، وأنا ألوذ بطرفي عنه ، وأستعذ بالله منه ، لأنه
ملأ عيني ونفسي . فقال لي لما انتهيت ، وقد استخفه الحسد : على من
أخذت الزمير ؟ قلت : وإنما أنا نقاخ عندك منذ اليوم ؟ قال : أجل ! أعطينا
كلما يترعى تلاع الفصاحة ، ويستحيم بماء العذوبة والبّراعة ، شديد الأسر

١ وأظما : رواية الديوان : وأصدى ، وهي أجود . اليمّلات : النياق النجبية . لعب الشمس :

ما يراه المسافر من أشعة الظهيرة كأنه خيوط تتدلّ فوق رأسه ، ويكون ذلك وقت اشتداد الحر .

٢ التأووس : القبر ، وهنا موضع بيته . الأين : الإعياء . ولعلها آينا جمع آية ليستقيم وجه الكلام . حبايبها : مبلغ جهدها ، ويكرر الحاء : الوداد .

٣ ينخب : ينزع .

٤ الزمير : النفخ في القصب .

جيدَ النظام ، وضعه على أي معنى شئت . قلت : كأي كلام ؟ قال : ككلام أبي الطيّب :

نزلنا على الأكوارِ نَمْشي كرامةً لِمَنْ بَانَ عَنهُ ، أَنْ نُلِمَّ بِهِ رَكْباً^١
نَدْمُ السَّحَابِ الْغُرِّ فِي فِعْلِهَا بِهِ ، وَنُعْرِضُ عَنْهَا ، كُلَّمَا طَلَعَتْ ، عَثْباً^٢
وكفوله :

أَرَأَيْتَ أَكْبَرَ هِمَّةٍ مِنْ نَاقِي ، حَمَلَتْ يَدَا سُرْحًا وَخَفَتْ مُجْمَرًا^٣
تَرَكْتَ دُخَانَ الرِّمْتِ فِي أَوْطَانِهَا ، طَلَبًا لِقَوْمٍ يُوقِدُونَ الْعَثْبَرَا^٤
وَتَكَرَّمْتَ رُكْبَانُهَا عَنْ مَبْرَكٍ تَقَعَانِ فِيهِ ، وَلَيْسَ مَيْسَكًا أَذْفَرَا^٥
فَأَتَتْكَ دَامِيَّةَ الْأَظْلَلِ كَأَنَّمَا حُدِيتَ قَوَائِمُهَا الْعَقِيقَ الْأَحْمَرَا^٦
وكفوله :

على كلِّ طائرٍ تحتَ طائرٍ كَأَنَّمَا مِنْ الدَّمِ يُسْقَى أَوْ مِنَ اللَّحْمِ يُطْعَمُ^٧

١ الأكوار : رجال الإبل . عنه : أي من الربع . والمراد : نمشي إلى الربع على الأقدام ، لا راكبين ، إكراماً للحبيب الغائب عنه .

٢ في فعلها به : أي أنها صفت آثاره .

٣ أكبر همة : رواية الديوان : أَرَأَيْتَ هِمَةً نَاقِيَةً فِي نَاقَةٍ . السرح : السهلة السير . المجمر : الصلب ، وبكسر الميم : الخفيف السريع .

٤ الرمت : شجر من الفضا .

٥ الأذفر : الذكي الرائحة .

٦ الأظلل : باطن الحف الذي يلي الأرض . حذيت : ألبست حذاء .

٧ الطاوي : الضامر البطن من الجوع ، ويراد بالأول القرم ، وبالثاني راكبه .

لَهَا تَحْتَهُمْ زِيُّ الْفَوَارِسِ فَوْقَهَا ، فَكُلُّ حِصَانٍ دَارِعٌ مُتَلَتِّمٌ^١
وما ذاك بُخْلًا بِالنَّفُوسِ عَلَى الْقَتَا ، وَلَكِنَّ صَدَمَ الشَّرِّ بِالشَّرِّ أَحْزَمُ
فَأَدْنَى^٢ وَاللَّهُ بِمَا قَرَعَ بِهِ سَمْعِي ، وَقُلْتُ لَهُ : أَيُّ مَاءٍ لَوْ كَانَ مِنْ جِمَامِكَ^٣ ،
وَاسْتَهَلَّتْ بِهِ عَيُونُ غَمَامِكَ ! ثُمَّ اسْتَقْدَمْتُ فَأَنْشَدْتُهُ :

وَلَرُبَّ لَيْلٍ لِلْهُمُومِ تَهَدَّتْ أَسْتَارُهُ فَمَحَا الصَّوَى بِسُتُورِهِ^٤
كَالْبَحْرِ يَضْرِبُ وَجْهَهُ فِي وَجْهِهِ ، صَعَبٌ عَلَى الْعُبَّارِ وَجْهُ عُبُورِهِ
طَاوَلْتُهُ مِنْ عَزَمَتِي بِمُضَبَّرٍ ، أَتَيْتُ هَمِّي فِي قَرَارَةٍ كُورِهِ^٥
وَعَلِيَّ^٦ لِلصَّبْرِ الْجَمِيلِ مُفَاضَةٌ ، تَلَقَى الرَّدَى ، فَتَكَلَّلُ دُونَ صَبُورِهِ^٧
وَبِرَاحَتِي مِنْ فِكْرَتِي ذُو ذِكْرَةٍ ، عُهُدَتِ تُذَاكِرُنِي بِطَبَعِ ذَكِيرِهِ^٨
فَرْدًا ، إِذَا بَعَثَتْ دِيَاجِي جِنْحِهِ هَوَلًا عَلَيَّ ، خَبَطْتُ فِي دَيْجُورِهِ^٩
حَتَّى بَدَأَ عَبْدُ الْعَزِيزِ لِنَاطِرِي أَمَلِي ، فَمَزَقْتُ الدُّجَى عَنْ نُورِهِ

١ لها تحته : في الديوان : لها في الوعى . زي الفوارس فوقها : أي على هذه الخيول التجافيف ،
بمنزلة للدروع على فرسانها الذين فوقها .

٢ أدنى : دهاني بالأمر القطيع .

٣ الجمام : جمع الجم ، وهو الماء أو معطه . والمراد : لو كان هذا الشعر من نظمتك .

٤ الصوى : جمع الصوة ، وهي حجارة تكون علامة في الطريق يبتدى بها .

٥ المضبر : البير المكتنز اللحم المجتمع النظام .

٦ المفاضة : الدرع الواسعة .

٧ الذكرة : حدة السيف . الذكير : أييس الحديد وأجوده .

٨ فرداً : حال من التاء به « طاولته » ، وتروى بالضم ، غير مبتدأ محذوف .

٩ عبد العزيز : هو المؤمن بن عبد الرحمن بن عامر .

وأنشدته :

الله في أرضٍ غُذيتَ هَواءُها ، وعِصَابَةٍ لم تَنهَمِ¹ إشفاقها²
تَكَزَّتُهُمْ³ أفعى الخطُوبِ ، وعُوجِلُوا بِمُثَمِّلٍ⁴ منها ، فكُنْ⁵ دِرْيَاقُهَا⁶
وافْتَحْ⁷ مَغَالِقَهَا بِعِزْمَةٍ فيصَلِ⁸ ، لو حاولتَ سَوَقَ الثُّرَيَّا سَاقُهَا⁹
ولو أنها منه ، إذا ما اسْتَلَّهَا ، تَعَرَّضُ¹⁰ الْجَوَازِءُ ، حَلَّ¹¹ نِطَاقُهَا¹²

وأنشدته :

لا تَبْكِيْنَ¹ مِِنْ⁴ اللَّيَالِي أَنَّهُا حَرَمَتَكَ² قَعْبَةً شَارِبٍ مِنْ مَشْرَبٍ³
فَأَقِلُّ⁵ مَا لَكَ عِنْدَهَا سِيفُ الرَّدَى ، يُسْتَلُّ⁶ مِنْ شَعْرِ الْقَدَالِ⁷ الْأَشِيبِ
وَرَحِيلُ⁸ عَيْشِكَ كُلِّ رِحْلَةٍ سَاعَةٍ ، وَفَنَاءُ طِيْبِكَ⁹ فِي الزَّمَانِ الْأَطْيَبِ
فَإِذَا بَكَيتَ¹⁰ فَبِكَ¹¹ عُمُرَكَ¹² ، إِنَّهُ زَجِلُ¹³ الْجَنَاحِ يَمُرُّ مَرَّةً الْكُوكَبِ¹⁴

وأنشدته :

ولم أرَ مِثْلِي¹ مَا لَهُ مِنْ مُعَاصِيرٍ ، وَلَا كَتَضَائِي² مَا لَهُ مِنْ مُضَافِيرٍ

١ الله : أي راقب الله .

٢ تَكَزَّتْهُ الْأَفْعَى : لَسَعَتْهُ . المِثْلُ : السِّمُ الْمُنْقَعُ .

٣ سَاقُهَا : ضَمِيرُ الرَّفْعِ يَعُودُ إِلَى فِصْلِ .

٤ نِصَاقُ الْجَوَازِءِ : ثَلَاثَةُ كَوَاكِبٍ مُسْتَعْرِضَةٍ فِي وَسْطِ الْجَوَازِءِ ، تَسْمِيهَا الْعَرَبُ النَّظْمُ ، وَهِيَ مِثْلُ فِي الْإِنْتَظَامِ وَالْإِلْتِمَامِ .

٥ النَفْبَةُ : الْخُرْجَةُ .

٦ زَجِلُ الْجَنَاحِ : أَي سَرِيعُهُ وَلَهُ صَوْتٌ وَجَلِيلَةٌ .

ولو كان لي في الجوّ كِسْرٌ أوْمَةٌ ، رَكِبْتُ إليه ظَهْرَ فَتَخَاءِ كَاسِرٍ
وَمَتَّ بِإِجْنَاهِشِ عَلِيٌّ ، وقد رَأَتْ مُصَابِيَّ فِي آثَارِ إِحْدَى الْكَبَائِرِ
فَقُلْتُ لها : إِنْ تَجْزَعِي مِنْ مُخَاطِرِي ، فَإِنَّكَ لَنْ تَحْظِي بِغَيْرِ الْمَخَاطِرِ
تَشَهَّتْ ثِمَارَ الْوَفْرِ مِنِّي ، لَدَى كُلِّ مُبَيِّضِ الْعَنَانِيزِ وَافِرٍ
لَه فِي بَيَاضِ الْيَوْمِ بِقِظَةٍ فَاجِرٍ ، وَتَحْتَ سَوَادِ اللَّيْلِ هَجْعَةُ كَافِرٍ
رُوبِنْدَكَ ، حَتَّى تَنْظُرِي عَمَّ تَنْجَلِي غِيَابَهُ هَذَا الْعَارِضِ الْمُتَنَائِرِ
وَدُونَ اعْتِرَامِي هَضْبَةً كِسْرَوِيَّةً ، مِنْ الْحَزْمِ ، سَلْمَانِيَّةً فِي الْمَكَاسِرِ
إِذَا نَحْنُ أَسْتَدْنَا إِلَيْهَا ، تَبَلَّجَتْ مَوَارِدُنَا عَنْ نَيْرَاتِ الْمَتَاصِرِ
وَأَنْتَ ، ابْنُ حَزْمٍ ، مُنْعِشٌ مِنْ عِثَارِهَا إِذَا مَا شَرِقْنَا بِالْجُدُودِ الْعَوَائِرِ
وَمَا جَرَّ أَذْيَالُ الْغِنَى نَحْوَ بَيْتِهِ كَارُوعَ مُعْرُورٍ ظُهُورَ الْجَرَائِرِ
إِذَا مَا تَبَغَّى نَضْرَةَ الْعَيْشِ كَرَّهَا ، لَدَى مَشْرِعِ الْمَوْتِ ، لِمَحَةِ نَاطِرِهَا
فَسَلَّ مِنَ التَّأْوِيلِ فِيهَا مُهْتَدًا أَخُو شَافِعِيَّاتِ كَرِيمٍ الْعُنَاصِرِ

-
- ١ الكسر : جانب البيت ، والشقة السفل من الخباء . الفتخاء : المقاب أليفة الخناج .
٢ العنانيز : كذا في الأصل ، ولا معنى له ، ويصح أن يكون العنانين ، كما رأى مصححو الذخيرة .
٣ هضبة كسروية : يريد بها صديقه الفقيه أبا محمد بن حزم . سلمانة : نسبة إلى سلمان الفارسي
الصحابي . المكاسر : جمع المكسر ، وهو المخبر والأصل .
٤ الجودود : المخطوط .
٥ معرور : راكب . يقال معرورى فرسه : ركبه حرياناً . الجرائر : الجنائيات .
٦ كرها : الضمير يعود إلى الجرائر ، على تشبيهها بالخيول . المشرع : المنهل .
٧ شافعيات : كان ابن حزم في أول أمره يميل به النظر في الفقه إلى رأي أبي عبد الله بن إدريس
الشافعي ، ففاضل عن مذهبه وتمصب له ، حتى وسم به ونسب إليه ، ثم عدل عنه إلى رأي الظاهرية ، =

لِمُعْتَزِلِي الرَّأْيِ ، نَاءٍ عَنِ الْمُدَى ، بَعِيدِ الْمَرَامِي ، مُسْتَمِيتِ الْبَصَائِرِ
يُطَالِبُ بِالْهِنْدِيِّ فِي كُلِّ فَتْكَةٍ ظُهُورَ الْمَذَاكِي عَنْ ظُهُورِ الْمَنَابِرِ^٢

وَأُنْشَدَتْهُ :

وَقَالَتِ النَّفْسُ لَمَّا أَنْ خَلَوْتُ بِهَا ، أَشْكُو إِلَيْهَا الْهَوَى خِلَافاً مِنَ النَّعَمِ :
حَتَّامَ أَنْتَ عَلَى الْفَرَاءِ مُضْطَجِعٌ ، مُعَرَّسٌ فِي دِيَارِ الظُّلَمِ وَالظُّلَمِ^٣
وَفِي السُّرَى لَكَ ، لَوْ أَزْمَعْتَ مُرْتَحِلًا ، بُرْءٌ مِنَ الشُّوقِ ، أَوْ بُرْءٌ مِنَ الْعَدَمِ^٤
ثُمَّ اسْتَمَرَّتْ بِفَضْلِ الْقَوْلِ تَنْهِيضِي ، فَقُلْتُ : إِنِّي لِأَسْتَحْيِي بَنِي الْحَكَمِ^٥
الْمُخَافِينَ رِدَاءَ الشَّمْسِ مَجْدَهُمْ ، وَالْمُنْعِلِينَ الثَّرِيَّاتِ أَخْمَصَ الْقَدَمِ^٦
أَلِمْتُ بِالْحُبِّ ، حَتَّى لَوْ دَنَا أَجْلِي ، لَمَّا وَجَدْتُ لَطْعَمَ الْمَوْتِ مِنَ أَلَمِ^٧
وَذَاذَنِي كَرَمِي عَمَّنْ وَلِيَهُ بِهِ ، وَيَلِيَّ مِنَ الْحُبِّ ، أَوْ وَيَلِيَّ مِنَ الْكِرَمِ^٨

= مذهب داود بن علي وأتباعه ، فنقحه وجادل عنه ، وانحرف عن غيره من المذاهب ، وكان في جداله قاسياً حديد اللسان حتى استهدف إلى فقهاء وقته فبالأولاء على نفسه ، وشتموا عليه ، فللفظة الجرائر تنطبق على مجادلاته وقاويلاته الأليمة .

١ كان لابن حزم ردود عنيفة على الممتزلة في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل .

٢ المذاكي : الخيول التي أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان .

٣ المعرس : الذي ينزل في مكان آخر الليل للاستراحة .

٤ العدم : الفقر .

٥ بني الحكم : أي أمراء بني أمية .

٦ أَلِمْتُ : في الأصل أَلِمْتُ ، ونبه على ذلك مصححو النسخة .

٧ ددني : دفعني وردني .

تَخَوَّنْتَنِي رِجَالٌ طَالَمَا شَكَرْتَ عَهْدِي ، وَأَنْتَ بِمَا رَاعَيْتُ مِنْ ذِمَّتِهِ
لَنْ تَنْقَرَعَنَّ عَلَيَّ السَّنَّ مِنْ نَدَمٍ ١ ،
هناك لا تَبْتَغِي غيرَ السَّناءِ يَدِي ، ولا تَخِفُ إِلَى غيرِ العُلَى قَدَمِي
حَتَّى تَرَانِي فِي أَدْنَى مَوَاقِيهِمْ ٢ ، على النِّعَامَةِ شَلَالًا ٣ مِنْ النِّعَمِ ٤
رَبَّانٍ مِنْ زَفَرَاتِ الخَيْلِ أُورِدُهَا ٥ ، أمواهَ نِبْطَةٍ تَهْوِي فِيهِ بِاللُّجْمِ ٦
قُدَّامَ أَرْوَغٍ مِنْ قَوْمٍ وَجَدْتُهُمْ ٧ ، أَرعى لِحَقِّ العُلَى مِنْ سَالِفِ الأَمَمِ ٨

فَفَتَحَ عَلَيَّ عَيْنَيْنِ كَالْمَاوِيَّتَيْنِ ٩ ، ثُمَّ قَالَ لِي : مَنْ الْقَائِلُ ؟

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنَا ، فَحَسِبْتَاهُ لَيْبَا
والتَّقَيْنَا ، فَرَأَيْنَا هُ بَعِيدًا وَقَرِيبَا

قُلْتُ : أَبِي . قَالَ : فَمَنْ الْقَائِلُ ؟

فِيَا مَنْ إِذَا رَامَ مَعْنَى كَلَامِي ، رَأَى نَفْسَهُ نُصِبَ تِلْكَ المَعَانِي
شَكُوتُ إِلَيْكَ صُرُوفَ الزَّمَانِ ، فَلَمْ تَعُدْ أَنْ كُنْتَ عَوْنَ الزَّمَانِ

١ سبيل : نجم يماني ، والثريا من النجوم الشامية ، فهما لا يلتقيان . وخطابه للأمير الأموي الذي قال عنه إنه أنمل الثريا أحصى قدمه . ولعله أراد بسبيل أحد أمراء بني حمود الذين كانوا ، في ذلك العهد ، ينازعون الأمويين الخلافة . ثالثة : أي ليلة ثالثة .
٢ النعامة : اسم فرس . شلال : يقال : فلان شلال النعم ، أي يطردها ويسوقها أمامه ، وتكون من غنائمه في الغزو . النعم : الإبل .
٣ نبطة : كذا في الأصل ، وهو كما يظهر اسم موضع ، أو نهر ، لم تتمكن من إثباته ، وإليه أرجع ضمير المذكور في قوله تهوي فيه .
٤ الماوية : المرأة .

وتَقْصُرُ عَنْ هِمَّتِي قُدْرَتِي ، فَيَا لَيْتَنِي لِسِي مَنْ نَمَانِي
وَلَا غَرَوَ لِلْحُرِّ ، عِنْدَ الْمُضِيِّ قَرِّ ، أَنْ يَسْمَنِيَ وَضِيعَ الْأَمَانِي

قلت : أَخِي . قَالَ : فَمَنْ الْقَائِلُ ؟

صُدُودٌ ، وَإِنْ كَانَ الْحَبِيبُ مُسَاعِفًا ، وَبُعْدٌ ، وَإِنْ كَانَ الْمَزَارُ قَرِيبًا
وَمَا فَتِشْتُ تِلْكَ الدِّيَارُ حَبَابًا لَنَا ، قَبْلَ أَنْ نَلْقَى بِهِنَّ حَبِيبًا
وَلَوْ أَسْعَفَتْنَا بِالْمُودَةِ فِي الْهَوَى ، لِأَدْنَى الْفَأْ ، أَوْ شَغَلَنَ رَقِيبًا
وَمَا كَانَ يَجْفُو مُمْرِضِي ، غَيْرَ أَنَّهُ عَدَنَهُ الْعَوَادِي أَنْ يَكُونَ طَبِيبًا

قلت : عَمِّي . قَالَ : فَمَنْ الْقَائِلُ ؟

أَتَيْنَاكَ ، لَا عَنْ حَاجَةٍ عَرَضَتْ لَنَا إِلَيْكَ ، وَلَا قَلْبٍ إِلَيْكَ مَشُوقٍ
وَلَكِنَّا زُرْنَا بِفَضْلِ حُلُومِنَا حِمَارًا ، نَلْقَى بِرْنَا بِعُقُوقِ

قلت : جَدِّي . قَالَ : فَمَنْ الْقَائِلُ ؟

وَبَلِي عَلَى أَحْوَرَ تَيَّاهٍ ، أَحْسَنَ مَا يَكُونُ بِهِ اللَّاهِي
أَقْبَلَ فِي غَيْدِ حَكَيْنِ الظُّبَا ، بِيضِ تَرَاقِي ، حُمْرِ أَفْوَاهِ
يَأْمُرُ فِيهِنَّ وَيَنْهَى ، وَلَا يَعْصِيَنَّهُ مِنْ أَمِيرٍ نَاهِي
حَتَّى إِذَا أَمْسَكْنِي أَمْرُهُ ، تَرَكْنَهُ مِنْ خَيْفَةِ اللَّهِ

١ صفة : صرفته . المرادي : الشواغل .

٢ التراقي : جمع الترقوة وهي مقدم الحلق في أهل الصدر حيثما يترقى فيه النفس .

قلت : جَدُّ أَبِي . قال : فمن القاتل ؟

وَيَحَ الْكِتَابَةِ مِنْ شَيْخٍ هَبْنَقَةٍ ، يَلْقَى الْعُيُونَ بِرَأْسٍ مُحْنَةٍ رَارُ
وَمُنْتِنِ الرِّيحِ إِنَّ نَاحِيَّتَهُ أَبَدًا ، كَأَتَمَّا مَاتَ فِي خَيْشُومِهِ فَارُ

قلتُ : أنا . قال : والذي نفسُ فِرْعَوْنَ بِيَدِهِ ، لا عَرَضْتُ لَكَ أَبَدًا ،
إِنِّي أَرَاكَ عَرِيقًا فِي الْكَلَامِ . ثُمَّ قَلَّ وَاضْمَحَلَّ ، حَتَّى إِنَّ الْخُنْفَسَاءَ لَتَدْوِسُهُ ،
فَلَا يَشْغَلُ رِجْلَيْهَا . فَعَجِبْتُ مِنْهُ ، وَقُلْتُ لَزُهَيْرٍ : مَنْ هَذَا الْجِنِّي ؟ فَقَالَ لِي :
اسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْهُ ، إِنَّهُ ضَرَطَ فِي عَيْنِ رَجُلٍ فَبَدَّرَتْ مِنْ قَفَاهُ ، هَذَا فِرْعَوْنُ
ابْنُ الْجَوْنِ . فَقُلْتُ : أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ، مِنَ النَّارِ وَمِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ !
فَنَبَسَ زُهَيْرٌ وَقَالَ لِي : هُوَ تَابِعَةُ رَجُلٍ كَبِيرٍ مِنْكُمْ ، فَفَهَمْتُهَا عَنْهُ .

١ هبنقة : رجل يضرب به المثل في الحق ، أجراءه مجرى الصفة . الرار : الذائب من المخ .

الفصل الرابع

حيوان الجن

لغة الحمير

ومشيت يوماً أنا وزهير بأرض الجن أيضاً نتقري الفوائد ونعتمد أندية أهل الآداب منهم ، إذ أشرقنا على قرارة غناء^١ ، تفتّر عن بركة ماء ، وفيها عانة^٢ من حمر الجن وبغالهم ، قد أصابها أولق^٣ فهي تصطك بالحوافر ، وتنفخ من المناخير ، وقد اشتد ضراطها ، وعلا شحيجها ونهاقها . فلما بصرت بنا أجفلت إلينا وهي تقول : جاءكم على رجله !
فارتعت لذلك ، فبسم زهير وقد عرف القصد ، وقال لي : تهياً للحكم .
فلما لحقت بنا بدأني بالتفدية ، وحيثني بالتكنية . فقلت : ما الخطب ،

١ القرارة : المطش من الأرض ، والقاع المستدير . غناء : كثيرة المشب ، أو تمر فيها الريح غير صافية الصوت لكثافة عشبها .

٢ العانة : القطيع من حمر الوحش .

٣ الأولق : الجذون أو شبهه .

٤ الشحيج : صوت البغل .

حُمَيِّ حِمَاكِ أَيْتُهَا الْعَانَةُ ، وَأَخْصَبَ مَرَعَاكِ ؟ قَالَتْ : شِعْرَانِ لِحِمَارٍ
وَبَغْلٍ مِنْ عَشَاقِنَا اخْتَلَقْنَا فِيهِمَا ، وَقَدْ رَضِينَاكِ حَكَمًا . قُلْتُ : حَتَّى
أَسْمَعَ . فَتَقَدَّمْتُ إِلَيَّ بَغْلَةً شَهْبَاءَ ، عَلَيْهَا جُلُّهَا وَبُرْقُعُهَا ، لَمْ تَدْخُلْ
فِيمَا دَخَلْتُ فِيهِ الْعَانَةُ مِنْ سُوءِ الْعَجَلَةِ وَسُخْفِ الْحَرَكَةِ ، فَقَالَتْ : أَحَدُ
الشُّعْرَيْنِ لِبَغْلٍ مِنْ بَغَالِنَا وَهُوَ :

عَلَى كُلِّ صَبٍّ مِنْ هَوَاهُ دَلِيلٌ : سَقَامٌ عَلَى حَرِّ الْجَحْوِ ، وَنُحُولٌ
وَمَا زَالَ هَذَا الْحُبُّ دَاءً مُبْرَحًا ، إِذَا مَا اعْتَرَى بَغْلًا فَلَيْسَ يَزُولُ
بِنَفْسِي الَّتِي أَمَّا مَلَا حِظُّ طَرَفِهَا فِسِحْرٌ ، وَأَمَّا خَدُّهَا فَأَسِيلٌ
تَعِبْتُ بِمَا حُمِلْتُ مِنْ ثِقَلِ حُبِّهَا ، وَإِنِّي لِبَغْلٍ لِّلثَّقَالِ حَمُولٌ
وَمَا نِلْتُ مِنْهَا نَائِلًا غَيْرَ أَنْتِي إِذَا هِيَ بَالَتْ بُلْتُ حَيْثُ تَبُولُ
وَالشُّعْرُ الْآخَرُ لِدُكَيْنِ الْحِمَارِ :

دُهِيتُ بِهَذَا الْحُبِّ مِنْذُ هَوَيْتُ ، وَرَأَيْتُ إِرَادَاتِي فَلَسْتُ أَرِيْتُ^١
كَكَلِفْتُ بِالْفِي مِنْدُ عِشْرِينَ حِجَّةً ، يَجُولُ هَوَاهُ فِي الْحَشَا وَيَعِيْتُ
وَمَا لِي مِّنْ بَرَحٍ الصَّبَابَةِ مَخْلَصٌ ، وَلَا لِي مِّنْ قَبْضِ السَّقَامِ مُغِيثٌ
وَغَيْرَ مِنْهَا قَلْبَهَا لِي نَمِيمَةٌ ، نَمَاهَا أَحَمُّ الْخُصْبَتَيْنِ خَبِيثٌ^٢
وَمَا نِلْتُ مِنْهَا نَائِلًا ، غَيْرَ أَنْتِي إِذَا هِيَ رَأَتْ رُئْتُ حَيْثُ تَرُوْتُ^٣

١ رَأَتْ : أَبْطَأَتْ .

٢ نَمَاهَا : أَيِ نَسَبَا إِلَيْهِ . الْأَحْمُ : الْأَسْوَدُ .

٣ رَأَتْ : أَحْدَثَتْ .

فضحك زهير^١ ، وتماسكت^٢ ، وقلت للمنشدة : ما هويت^٣ ؟ قالت :
هو هويت^٤ ، بلغة الحمير . فقلت : والله ، إن للروث رائحة كريهة^٥ ، وقد
كان أنف الناقة^٦ أجدر أن يحكم^٧ في الشعر ! فقالت : فهمت^٨ عنك . وأشارت
إلى العانة أن^٩ دُكينا مغلوب^{١٠} ؛ ثم انصرفت^{١١} قانعة راضية .

وقالت لي البغلة : أما تعرفني أبا عامر ؟ قلت : لو كانت شم^{١٢} علامة !
فأماطت^{١٣} لثامها ، فإذا هي بغلة أبي عيسى ، والخال^{١٤} على خدّها ، فتباكينا
طويلاً ، وأخذنا في ذكر^{١٥} أيامنا ، فقالت : ما أبقت^{١٦} الأيام منك ؟ قلت : ما
ترين^{١٧} . قالت : شب^{١٨} عمرو عن الطوق^{١٩} ! فما فعل الأحبة^{٢٠} بعدي ، أهم على
العهد ؟ قلت : شب^{٢١} الغلمان ، وشاخ الفتيان ، وتكثرت^{٢٢} الخلائ^{٢٣} ، ومن
إخوانك^{٢٤} من بلغ^{٢٥} الإمارة ، وانتهى إلى الوزارة . فتنفست^{٢٦} الصعداء ، وقالت :
سقاها^{٢٧} الله سبيل^{٢٨} العهد ، وإن حالوا عن العهد ، ونسوا أيام^{٢٩} الود . بحرمة^{٣٠}
الأدب ، إلا^{٣١} ما أقرأتهم^{٣٢} مني السلام ؛ قلت : كما تأمرين^{٣٣} وأكثر .

الإوزة الأدبية

وكانت في البركة بقربنا إوزة^١ بيضاء شهلاء^٢ ، في مثل جثمان^٣ النعامة ،

١ أنف الناقة : الجني الذي مر ذكره .

٢ انصرفت : الضمير يعود إلى العانة .

٣ شب عمرو عن الطوق : مثل يضرب لمن يلبس شيئاً دون قدره وعمره ، أو لمن كبر عن شيء
كان يتزيا به .

٤ السبل : المطر . العهد : أول مطر الوسمي ، ومطر بعد مطر يدرك آخره بلل أوله .

كأثما ذُرَّ عليها الكافور ، أو ليست غلالةً من ديمقس الحرير ، لم أرَ
أخفَ من رأسها حركة ، ولا أحسن للماء في ظهرها صَبًا ، تشي سالفتها ،
ونكسرُ حدقتها ، وتلويبُ قمحَ دوتها ، فترى الحسنَ مستعاراً منها ،
والشكلَ مأخوذاً عنها ، فصاحت بالبعلة : لقد حكمتُم بالهوى ، ورضيتُم من
حَاكمكم بغيرِ الرضا .

فقلتُ لزهير : ما شأنُها ؟ قال : هي تابعةٌ شيخٍ من مشيختكم ، تُسمى
العاقلة ، وتُكنى أمَّ حَقِيف ، وهي ذات حظٍّ من الأدب ، فاستعِدَّ لها .
فقلتُ : أيتها الإوزةُ الجميلة ، العريضةُ الطويلة ، أبحسنُ بجمالِ حدقتيكِ ،
واعتدالِ منكبَيْكِ ، واستقامةِ جناحيكِ ، وطولِ جيدِكِ ، وصِغَرِ
رأسِكِ ، مقابلةُ الضَّيفِ بمثلِ هذا الكلام ، وتلقِي الطارئَ الغريبَ بشبهِ هذا
المقال ؟ وأنا الذي هِمتُ بالإوزَ صَبابةً ، واحتملتُ في الكَلَفِ بها عَضُ
كلِّ مقالة ، وأنا الذي استرجعتها إلى الوطنِ المألوف ، وحببتها إلى كلِّ
غِطْرِيفٍ ، فاتخذتها السادةُ بأرضينا واستهلكَ عليها الظرفاءُ منّا ،
ورُضيتُ بدلاً من العصافيرِ ، ومُتكلّمتِ الزرازيرِ ، ونُسيتُ لذّةُ الحمامِ ،
ونِقارُ الديوكِ ، ونِطاحُ الكباشِ .

فدخلتها العُجْبُ من كلامي ، ثم ترفعتُ وقد اعترتها خيفةٌ شديدةٌ
في مائها ، فمرةٌ ساجدة ، ومرةٌ طائرة ، تنغمسُ هنا وتخرجُ هناك ، قد تقبَّب

١ السالفة : ناحية مقدم العنق من لدن معلق القوط إلى الرقوة .

٢ القمحودة : مؤخر القذال ، والحنة الناشزة فوق القفا ، وأعل القذال خف الأذنين .

٣ النظريف : السيد الشريف .

جَنَاحَهَا . وانتصبت ذُنَابَهَا ، وهي تُطَرَّبَ تطرِبَ السَّرور ؛ وهذا الفعل معروفٌ من الإوزِ عند الفرح والمرح . ثم سكنت وأقامت عُنُقَهَا ، وعرضت صدرَهَا . وعملت بِمِجْدَافِيهَا ، واستقبلتنا جائِيَةً كَصَدْرِ المَرْكَبِ ، فقالت : أَيُّهَا الغارُّ المغرور ، كيف تحكُم في الفروعِ وأنت لا تحكُمُ الأصول ؟ ما الذي تُحسِن ؟ قلتُ : ارتجالَ شِعْر ، واقتضابَ خُطْبَةٍ ، على حُكْمِ المقترح والنَّصْبَةِ^١ . قالت : ليسَ عن هذا أسألك . قلت : ولا بغيرِ هذا أجابُكَ . قالت : حُكْمُ الجوابِ أن يقعَ على أصل السؤال ، وأنا إنما أردتُ بذلك إحسانَ التحوير والغريبِ اللذين هما أصلُ الكلام ، ومادَّةُ البيان . قلت : لا جوابَ عندي غيرَ ما سمعت . قالت : أقسمُ أنَّ هذا منك غيرُ داخلٍ في باب الجدَل . قلت : وبالجدَلِ تطلبِيننا وقد عقدنا سَلَمَهُ ، وكُفينا حَرْبَهُ ، وإنَّ ما رَمَيْتُكَ به منه لأنفذُ سِيَاهِهِ ، وأحدُّ حِرَابِهِ ، وهو من تعاليم الله ، عزَّ وجلَّ ، عندنا في الجدَلِ في مُحْكَمِ تنزيله . قالت : أقسمُ أنَّ الله ما علَّمَك الجدَلِ في كتابه . قلت : محمولُ عنكَ^٢ أمَّ خفيف ، لا يَلْزَمُ الإوزَ حِفْظُ أدبِ القرآن ، قال الله ، عزَّ وجلَّ ، في مُحْكَمِ كتابه حاكياً عن نبيِّه إبراهيمَ ، عليه السلام : « رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ، قال : أنا أُحْيِي وَأُمِيتُ . » فكان لهذا الكلام من الكافر جواب ، وعلى وجوبه مقال ؛ ولكنَّ النبيَّ ، صلى الله عليه وسلم ، لما لاحَظَّ له الواضحةُ القاطعةُ ، رماهُ بها ، وأضربَ عن الكلامِ الأول ، قال : « فإِنَّ

١ المجادف : الجناح ، ومنه مجادف السفينة .

٢ النصبة . السارية المنصوبة علامة الطريق ، والمراد هنا ما يشار به من رأي لا يعدل عنه ، يقال : نصبت له رأياً .

٣ محمولُ عنكَ : من حمل عنه ، أي حمل .

الله يَأْتِي بالشمسِ من المَشْرِقِ ، فَأَتِي بها من المغربِ ؛ فَبُهِتَ الذي كَتَفَرَ .
وَأَنَا لَا أَحْسِنُ غيرَ ارتجالِ شعرٍ ، واقتضابِ خُطْبَةٍ ، على حُكْمِ المُقْتَرَحِ والنُّصْبَةِ .
فاهتَزَّتْ من جانبيها ، وحال الماءِ من عينيها ، وهَمَّتْ بالطيرانِ . ثم اعترأها
ما يعترِي الإوزَ من الألفةِ وحسن الرِّجْعَةِ ، فَقَدَمَتْ عُنُقَهَا ورَأْسَهَا إلينا تَمْشِي
نَحْوَنَا رويداً ، وتنطِقُ نطقاً مُتَدَارِكاً خَفِيّاً ، وهو فعلُ الإوزِ إِذَا أُنِيتُ
واستراضتْ وتَذَلَّلَتْ ؛ على أَنِّي أَحَبُّ الإوزِ وَأَسْتَظْرِفُ حَرَكَتَيْهَا وما يَعْرِضُ
من سَخَافَاتِهَا .

ثم تَكَلَّمْتُ بها مُبَسِّساً^١ ، ولها مَوْئِساً ، حتى خالطتنا وقد عَقَدْنَا سَلَمَهَا
وكَفَيْنا حَرَبَهَا ، فقلتُ : يا أُمَّ خَفِيفَ ، بالذي جعلَ غِذاءَكَ ماءً ، وحَسَا
رَأْسَكَ هواءَ ، أَلَا أَيُّما أَفْضَلَ : الأدبُ أَمْ العقلُ ؟ قالتُ : بل العقلُ . قلتُ :
فهل تعرفين في الخلائقِ أَحَقَّ من إوزَةٍ ، ودَعِينِي من مَشْكِهم في الحُبَّارَى^٢ ؟
قالتُ : لا . قلتُ : فتظَلِّي عقلَ التَّجَرِبَةِ ، إِذْ لَا سَبِيلَ لَكَ إِلى عقلِ الطَّبِيعَةِ ،
فإِذَا أَحْرَزْتَ مِنْهُ نَصِيْباً ، وبُوَّتْ مِنْهُ بِحَظٍّ ، فحينئذٍ ناظِرِي في الأدبِ .
فانصرفتُ وانصرفنا .

نمت الرسالة والحمد لله

١ حال الماء : أي سقط .

٢ مبساً : داعياً بقوله : بس بس .

٣ الحبارى : طائر معروف يضرب به المثل في الحق والنباوة كما يضرب بالإوز .

٤ باء : ربح .

المراجع

اعتمدنا دواوين الشعراء ، وكتاب الأغاني ، وديوان الحماسة ، والعقد
الفريد ، ومعجم البلدان ، والقاموس ، ومعجم دوزي ، في تصحيح
الأشعار ، وتحقيق أسماء الأعلام والأماكن ، وشرح الاصطلاحات
الأندلسية أو الحضريّة ، الواردة في رسالة التوابع والزوابع . ورجعنا
في الكلام على ابن شهيد ونقد آثاره إلى هذه الكتب :

الكتب العربية

| | |
|------------------|-----------------------------|
| ابن بسام : | الذخيرة |
| الفتح بن خاقان : | مطمح الأنفس |
| الثعالبي : | يتيمة الدهر |
| المقري : | نفح الطيب |
| ابن خلدون : | كتاب العبر |
| ابن خلكان : | وفيات الأعيان |
| ابن عذاري : | البيان المغرب |
| بطرس البستاني : | أدباء العرب ، ج ٣ |
| بطرس البستاني : | معارك العرب في الشرق والغرب |

الكتب الفرنسية

- Dozy, Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne, Leyde — E. J. Brill 1881.
- Cl. Huart, Histoire des Arabes, Geuthner, Paris.
- Louis Bertrand, Histoire d'Espagne, Arthème Fayard, Paris.
C. Brockelmann, Histoire des Peuples et des Etats Islamiques
(Traduction de M. Tazourout) Payot, Paris.

رسالة التوابع والزوابع

الكتاب الأول

ابن شهيد الأندلسي

حياته ، أدبه ، رسالة التوابع والزوابع

| | |
|----|---------------------------------|
| ٧ | ابن شهيد |
| ١١ | الفتنة |
| ١٣ | ابن شهيد والمؤمن |
| ١٦ | عند المستعين |
| ١٧ | في خلافة الحموديين |
| ١٩ | مرضته الأخيرة |
| ٢١ | لهو ومجون |
| ٢٤ | أصحابه وأهل مودته |
| ٢٨ | خصومه وحساده |
| ٣٨ | أدب ابن شهيد — الشاعر |
| ٤٦ | الكاتب |
| ٥٤ | الناقد |
| ٦٣ | رسالة التوابع والزوابع — نسختها |
| ٦٧ | تاريخها |
| ٧٠ | هدفها |

| | | |
|----|-----------|-----------------------------|
| ٧١ | | أقسامها |
| ٧١ | | المدخل - زهير بن نمير |
| ٧٢ | | الفصل الأول - توابع الشعراء |
| ٧٢ | | الفصل الثاني - توابع الكتاب |
| ٧٣ | | الفصل الثالث - نقاد الجن |
| ٧٣ | | الفصل الرابع - حيوان الجن |
| ٧٤ | | هي ورسالة الغفران |

الكتاب الثاني

رسالة التوابع والزوابع

المدخل

| | | |
|----|-----------|--------------|
| ٨٧ | | زهير بن نمير |
|----|-----------|--------------|

الفصل الأول - توابع الشعراء

| | | |
|-----|-----------|---------------------|
| ٩١ | | شيطان امرئ القيس |
| ٩٣ | | شيطان طرفة |
| ٩٦ | | شيطان قيس بن الخطيم |
| ٩٨ | | صاحب أبي تمام |
| ١٠٢ | | صاحب البحري |
| ١٠٤ | | صاحب أبي نواس |
| ١١١ | | صاحب أبي الطيب |

الفصل الثاني - توابع الكتاب

| | | | | | | | |
|-----|---|---|---|---|---|---|---------------------------|
| ١١٥ | . | . | . | . | . | . | صاحباً الجاحظ وعبد الحميد |
| ١١٩ | . | . | . | . | . | . | رسالة الحلواء |
| ١٢٤ | . | . | . | . | . | . | صاحب الإفليلي |
| ١٢٥ | . | . | . | . | . | . | صفة برغوث |
| ١٢٦ | . | . | . | . | . | . | صفة ثعلب |
| ١٢٧ | . | . | . | . | . | . | صاحب بديع الزمان |
| ١٢٩ | . | . | . | . | . | . | رجع إلى أنف الناقة |
| ١٣١ | . | . | . | . | . | . | صاحب أبي إسحاق بن حُمام |

الفصل الثالث - نقاد الجن

| | | | | | | | |
|-----|---|---|---|---|---|---|----------|
| ١٣٢ | . | . | . | . | . | . | مجلس أدب |
|-----|---|---|---|---|---|---|----------|

الفصل الرابع - حيوان الجن

| | | | | | | | |
|-----|---|---|---|---|---|---|----------------|
| ١٤٧ | . | . | . | . | . | . | لغة الحمير |
| ١٤٩ | . | . | . | . | . | . | الإوزة الأدبية |

